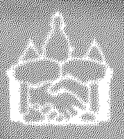
إعداد
د. موريس فرادوارد

موسوعة مشاهير العالم

الجزء الرابع



أعلام الفكر السياسي والعالمي



دار الصداقة العربية
بيروت







١

أعلام

الفكر السياسي والعالمي

- الطبعـــــة الأولى ٢٠٠٢

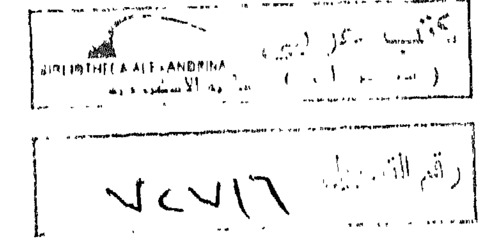
دار الصداقة العربية بيروت لبنان

للطباعة والنشـر Printing - Publishing

هاتف ٩٩٠٧٩٩/٠٣ ٠١/٦٥٧٥٧٢ فاكس ٣٠٧٧٠٧ ص. ب ١٨٤/١٠٠

أعـــلام

الفكر السياسي والعالمي





مقدمة

ليس بمقدور المرء أن يعيش حالاً من السعادة المطلقة، أو في عالم يخلو من العذاب. ذلك أنه حال من التناقضات المتلاطمة التي تحيل إلى كراهية أو العكس. من هنا كان لا بد من العاطفة في عالم ليس باستطاعته أن يعيش ن دونها. إن المجتمع بركان ثائر على الدوام حيث يقذف حممه شمالاً ويميناً، وأمواج الوجود المتلاطمة تعبث بالإنسان وبوجوده وترمي الصفعة تلو الأخرى، وتنهال فوق الأهداب نعاساً وقلقاً وسأماً يلف النفس بأحزمة الموت والعدم. وكم من أديب عاش سكرة الموت والألم، وعاش بين تلاطم التلاشي وصفعات الألم، وهل من أمل؟ لقد اختلفت أوجه النظر بين أديب وآخر، فذاك مؤمن وذاك جاحد، حتى امتلأت الأعصر الأدبية بكلا الاتجاهين، وهكذا سقط الوجود في قرارة سيزيف مرة، وبرميوس مرة أخرى، وأُثقل قلب هذا الأديب حباً وذاك الأديب ندماً.



تعذيب النفس في أدب دستويفسكي

يقول دستويفسكي في رواية «الأبله»: «لماذا نصدق ونحن نيام ما تفيضه الأحلام في مخيلاتنا من عجائب الأمور وفوارق الأحداث؟ ولماذا نشعر متى استفقنا بأن الحلم الذي غادرنا قد حمل معه سراً نجهله؟ قد نبتسم لغرابة الحلم واستحالته ولكننا نشعر بأن ذلك النسيج الموهوم إنما ينطوي على فكرة خطيرة لها صلتها الوثقى بحياتنا، وأثرها الكبير في قلوبنا، فكأن في الحلم إثارة من النبوة».

وما يقوله دستويفسكي عن الأحلام يصح أن يقال عن رواياته أيضاً، لا لأنها لون من الخيال وضرب من المحال، فهي من أصدق وأعمق ما كتب في عالم الرواية، بل لأننا نشعر إذ ننتهي من قراءتها بشعور المستيقظ من حلم عميق، قد يبدو غريباً وبعيداً إذا ما نسب إلى وقائع الأيام، ولكنه إلى النفس قريب لأنه من النفس يصدر وإليها يعود.

كان لروايات دستويفسكي في أوروبا صدى عظيم ملأها روعة وإعجاباً، ووسم أدبها بميسمه الصارخ، فترجمت إلى جميع اللغات الحية، وألفت عنه وعنها مئات الكتب والأبحاث، وعكف أساتذة الأدب وعلماء النفس على تفسير ما غمض منها واستقصاء ما خفي فيها، وكل يزعم أنه الناقد الذي أصاب الحق وأدرك وجه الصواب.

ولعل أكبر ما أثار دهشة الناقدين أن هذه الروايات العظيمة، تدور بأجمعها حول إنسانية حائرة تبحث عن الألم وتستمتع به، وتخلق لنفسها من الشك في ذاتها وحياتها ومثلها وعقائدها، ما يثير قلق الضمائر ويوقظ العذاب كلما جنح

إلى السكون. فهل تتوق النفس في بعض الأحيان إلى العذاب فتجد فيه قبساً من الغبطة ولوناً من الراحة، وتطمئن إليه اطمئنان الشهداء لما يلاقون من عنت الأيام وإرهاق الجاحدين؟ أم تلك نزعة دينية في أناس يتخذون الألم وسيلة للتقرب إلى الله والفناء في الكون؟ أم أنه انحراف في ميول دستويفسكي النفسية وصدى لنوبات الصرع التي لازمته طوال حياته؟ أم هو دليل على الإنحراف الجنسي الذي نسب إليه والذي جعل منه، كما يقولون، مريضاً ينشد الألم عن طريق اللذة، ويبتغي اللذة عن طريق الألم؟

هذه هي الآراء المتضاربة التي حاول أصحابها تفسير العذاب في أدب دستويفسكي ورأوا أنها تزيح عن رواياته ستار الغموض. ولعلنا نضيف إليها تفسيراً آخر من خلال حياته التي قضاها في كبت مرهق لأسمى عواطفه، ونضال ممزق لكسب خبزه اليومي، ما أثر في نفسه وفي أدبه؟ لا ريب في أنها عاشت في قلبه وروعت أمانيه وحفرت فيه لوعة مرة على حقه الشهيد وطموحه الذبيح وحريته السليب، فكان ألم أبطاله صدى آلامه وآلام الإنسانية المضطهدة. وبدلاً من أن يلوذ بصوفية خيالية يموت فيها الضمير ويظلم الوجدان، مضى يستشف الألم في العيون والأكباد الحرّى، حاملاً البعث للموتى والعزاء للضالين ومبشراً بفردوس أرضي يساوي بين الناس في ظل الرخاء والحب. ومن ثم لم يكتب إلا قصص المذلين والمهانين، والبغايا والمجرمين، والبائسين الذين ركبهم الدهر بعدوانه، تخالهم لبؤسهم وقلقهم أمواتاً نشروا من صم القبور، وأشباحاً شردوا من غياهب الكوابيس.

لم ينشد دستويفسكي من الإنسان إلا قلباً محباً، كالقديس أغسطينوس، سأله مريدوه قانوناً للحياة، فقال: «أحبوا ثم اصنعوا ما تشاؤون». هل الفضيلة في عرف ذلك الروائي إلا الحب، يعمر النفس المجدبة، ويحيي القلب الموات؟ وهل الرذيلة إلا البغض، يعيش صاحبه وكأنه قبر رخامي جميل إذا فتحته لم تجد فيه سوى الدود والعفن؟

وكان دوستويفسكي مولعاً بتصوير الإثم، ولكن أبطاله لا يقترفون الآثام

إلا للإحساس بالحياة والإمتلاء بها، ثم يفتحون مغالق قلوبهم للندم، ويقبلون على الألم في نهم المحروم وظمأ اللاغب. والألم عون على عمارة النفس، يشعرها بنبلها ويطهرها من رجسها فتختلج بعوامل إنسانية شتى تدنو بها من الله.

والخير عند دستويفسكي أن يكون المرء مجرماً، بريئاً من الاثرة المظلمة، مؤمناً بفضيلة الإنسان، ساعياً بين الناس بالخير، من أن يكون مخلوقاً تافهاً فاتر الوجدان، يحترم القوانين، ويمالىء النظم المتعبة، ثم يسعى لإرضاء أنانيته في الظلام.

هذا القاتل بريء من الإثم لأنه جثا عند قدمي المومس يحاول التكفير عن جرمه بإنقاذها من وهدتها. وهذا اللص شريف أغر النفس لأنه يتصدق بالمال على الفقراء. وهذا السكير الذي تعاني منه زوجته وطأة السل وتبيع ابنته جسدها مسكين يستحق الرحمة لأنه ينشد في الكأس دموعاً لا مسرات. وهذه المومس طاهرة في فجورها لأنها تعطي مالها لمن هو أشد احتياجاً منها. وهذا الرجل الذي يبيع طفله نبيل على الرغم من ذلك لأنه باعه وهو يحبه. وهذه البغي الهلوك قديسة تقية لأنها تخشى، إن هي لامست أبيها، أن تدنسه بالرجس!

إذا اعترفت بوضاعتك فأنت كريم نبيل. وإذا ندمت على خطيئتك فأنت بريء منها. وظاهر الإثم خير من باطن الحقد، وكم من طالب غي وجده والرشد معاً.

ليس في المجتمع الحاضر عدالة بل هناك أناس عادلون، ولا حقيقة بل هناك أناس مخلصون، ولا جمال بل هناك فنانون. ولا يشعر بعظمة الحياة إلا من أحس نبضات القلوب البشرية تتجاوب مع نبضات قلبه. هؤلاء وحدهم يعيشون لأنهم يحبون. ومهما اقترفوا من آثام، وسلكوا من دروب الحياة عوجاً، فهم أسياد على الأسياد وملوك على الملوك، لأنهم أطهار بررة، تنطوي قلوبهم على نفحة الحياة وحرارة الوجد، ويتوامض على قسماتهم لهيب يتوقد بالشوق، وتتألق عيونهم بالشعاع الظامىء إلى الغفران، كتلك المرأة التي قال

عنها: «يكفي أن يخلص أحدهم في حديثه لها، لكي تنسى كل سبة وتغفر كل ذنب وتعانقه باكية» أو كاليوشا في رواية «**الأخوة كارامازوف**» شاهد أفراد أسرته وهم يشرقون بالإجرام والدعارة، فنصب شخصه ضحية لهم وقرباناً، وحمل نفسه عذابهم جميعاً وقدمها فدية لخلاص نفوسهم في ابتسامة فرح ورضى. أو مثل شاكوف في رواية «**المسكونون**» خانته زوجته ثم جاءته بعد أعوام تشكو المخاض فلم تفتر شفتاه عن كلمة عتاب، وإنما فتح لها قلبه وبيته، ثم مضى يجوب الشوارع تحت جنح الليل بحثاً عن قابلة تساعدها على الوضع، فلما أطل الطفل، طفل زوجته من عشيقها، على الحياة، شعر شاكوف بأنه يدنو من الله.

في بؤس هذه الفئة المضطهدة من اغمار الناس كان دستويفسكي يبحث عن عظمة العالم ومجد الحياة، لأنها تعاني ذل العبودية وعذاب الخطيئة والحنين إلى الطهر، ثم تخلص من هذا كله إلى البعث المجيد فتحس ما فيها من قوة تدفعها نحو الله.

ويتعدى عطف دستويفسكي على الخاطئين والمظلومين حد الشفقة، فيراهم شهداء أحياء لا يمنعهم غبنهم وبؤسهم من أن يكونوا قوة تتدفق في نهر الحياة كالحياة. وإذا كان كل واحد منهم ليصرخ في ضراعة ولوعة: «أنبيل أنا أم حقير؟ وهل أستحق ما أعاني من نقمة المجتمع أم أنا جدير بنعيم الحياة». فقد كانوا يستصرخون غير سميع ويشتكون إلى غير قاض، أما دستويفسكي فقد أجاب على سؤالهم بإعطائهم كتباً ترفعهم من حمأتهم إلى طريق الله.

هذه هي الفكرة القائدة في أدب دستويفسكي والتي تفسر ظاهرة العذاب تفسيراً لا إتهام فيه:

للشخصية الإنسانية جانبان: الجانب الوضعي الخاضع للقوانين الإجتماعية بما تنطوي عليه من عنت وإرهاق، والجانب الخفي المطبوع على الصراحة والحرية. ودستويفسكي الذي يؤثر الغريزة على العقل، لا يتردد في تفضيل الجانب الباطني في الإنسان على الجانب الإجتماعي. ومهما قيل في ذلك

التقدير الموهوم الذي استخدمه الإجتماع، فإن الاستمتاع بالحرية خير من هوان دائم يفرض على الإنسان باسم حماية الإنسان.

يخرج الإنسان إلى المجتمع وفي نفسه نوازعه الداخلية فيجد حريته مقيدة من كل جانب، ويجد فيما أكره عليه من الآداب والتقاليد والنظم سجناً يحد مطامحه ويخمد آماله، فيظل وفي نفسه قلق وشك بما يصير أمره إليه. فإذا وقر في ذهنه أنه سيقضي الحياة بلا شعور لديه، وأنه سيعيش صادي القلب كادي الرجولة كالأرض الطيبة الخراب، لذّ له أن يتمرد وينتفض، وأن ينال قيوده بالتدمير. فإذا لم يستطع ذلك، وهو لا يستطيعه في أكثر الأحيان، احتمل الظلم كارهاً وانطوى على طموحه انطواء البركان على حممه. وهذا الطموح المتوهج الحبيس هو أصل الرغبة في تعذيب النفس وتعذيب الآخرين ومن غلوائه انشعبت صنوف الريب والشكوك والآلام.

ليس في نفس الإنسان قوة تضارع القوة التي تظاهرت عليه بجورها وتناقضها، وليس فيها سطوة كسطوة الإستبداد والطغيان، وليس فيها رياء العقل ونفاقه، ولكنها لا تزال تحتفظ بقوة الحق وما تفتأ تشك في المجتمع، وما يكرهها عليه من عرف وخلق، لأن هذا الشك رمز لحريتها وخلاصها. فإذا هي وثقت بحقها تمام الوثوق، وخلصت من شر الرغام الطافي على سطحها وقُدِّرَ لحريتها أن تتنفس، واستطاعت أن تسير سيرة الهداية بين الناس.

أما الآن وهي في عاصف نضالها لإثبات حقها وحريتها، فقد تعالج السمو ولكن العجز يقعدها ويرغمها على ملابسة البيئة والخضوع لها، ثم تشعر بأن خضوعها قد ألبسها عاراً تهون معه الحياة، فيعتريها جنون يدفع بها إلى كل المواقف، ويتفجر في اهتزازات عصبية تصدر في أغلب الأحيان من غير اتزان ولا وعي. وقد لا تجد لطموحها متنفساً إلا بتدمير ذاتها فتتوق إلى الشذوذ وتهرع إلى الإثم وتتطلب العذاب، وهي لا تفعل ذلك وتسترسل إليه إلا رغبة منها في احتضان الحياة التي حرمت عليها وتحدي المجتمع الذي أودى بها إلى الدرك الأوهد من الشقاء.

وهكذا تعالج روايات دستويفسكي صراع النفس والمجتمع، ولكنها تعالجه بصورة فذة صاخبة لا مثيل لها فيما عرفنا من روايات الغرب. هو صراع بين قوتين كاملتين لا بين فكرتين مختلفتين، بين شخصيتين متمايزتين تظهر الواحدة آناً والثانية آناً وتظهران معاً أحياناً. وقد تستيقظ إحداهما لحظة واحدة ثم ترقد في نفس صاحبها جريحة مهشمة، ويستتب الأمر غير طويل ثم تعود فتحتدم وتطفو وتنطلق إلى وضح النور.

يقول فيرسيلوف في رواية «المراهق»: «إن قلبي مفعم بالكلام ولكني لا أعرف ماذا أقول. كثيراً ما يبدو لي أني مغلق على رجلين. أجل، حقاً إني لمغلق على رجلين، وأن هذا الأمر ليخيفني. لكأن قرينك قائم إلى جانبك ما يبرح. أما أنت فحريص متزن، وأما هو فكأنه يهم بالمستحيل أبداً. ثم تلاحظ فجأة أنك أنت الذي يريد ذلك المستحيل وليس هو. إنك تريده من غير أن تريده. تريده وأنت تقاومه بكل قواك.

«أعرف طبيباً مات أبوه، وبينما هو في الكنيسة يصلّي مع الناس من أجله، إذا هو يغني بغتة. وإذا لم أكن قد ذهبت اليوم إلى احتفال الدفن فلأني كنت موقناً من أني سأنشد أو أقهقه صنيع ذلك الطبيب التعس».

ويقول ستافروجين بطل «المسكونون»: «أستطيع الآن، كما كنت دائماً، أن أشعر في وقت واحد، بالرغبة في عمل الخير والتلذذ به والرغبة في علم الشر والإغتباط باقترافه».

وروايات دستويفسكي حافلة بأمثلة رائعة من هذا الصراع النفساني أو قل من هذه المأساة الإنسانية العنيفة، فنرى أبطاله يتطرفون إلى حد الجنون، ويثورون إلى حد الجريمة، ويتوبون إلى حد البراءة، ويخلصون إلى حد البله، ويعيشون في هذيان غامر محموم.

وقد نرى أن بعض هؤلاء الأشخاص قد لج المجتمع في إذلالهم حتى صاروا ينشدون الألم التماساً للذهول، ويجدون لذة غريبة في تعذيب أنفسهم مختارين بعد أن عانوا من تعذيب الناس نصباً، كبطل «المراهق» الذي يقول

وقد أصيب في كرامته: «لن أصرخ وأشتم. منذ طفولتي وأنا أهان وأعذب، وكلما أهنت ولدت في نفسي شهوة ملحة للتمرغ في الإنحطاط، وبدا لي أن أستكين لخصمي صارخاً: لقد أخضعتموني! حسناً، سأمعن في إخضاع نفسي أكثر ما تبتغون. فانظروا واعجبوا». أو كبطل «مذكرات الكهف»، الذي مر ذات مساء بالقرب من أحد الفنادق، فشاهد لاعبي البليار يتضاربون بالعصي، ثم تألبوا على أحدهم وألقوه من النافذة فقال: «لو شاهدت هذا الشجار في وقت آخر لتأذى له قلبي، ولكني كنت في حال نفسية جعلتني أغلط الرجل وأدخل الصالة لعلهم يقذفونني من النافذة أنا أيضاً. لم أكن ثملاً ولكن... ماذا أقول، وهل يدري امرؤ إلى أين يفضي به الضجر! على أن الأمر لم يتم مثلما رغبت فيه. ولم يكن بوسعي أن ألقي بنفسي من النافذة، فغادرت الغرفة من دون أن أضرب».

وليس أدل على أن معاقبة الذات قد تكون نوعاً من معاقبة الآخرين، من شخصية نيلي في رواية «**المذلون والمهانون**»، تلك الفتاة التي لم تعرف لها أباً ولا أماً فعاشت في لهف عجوز تسومها سوء العذاب. ثم انتشلها فانيا من عسف المرأة وطغيانها وقادها إلى بيته فأكرم رفدها وعني بها عناية المحب الحادب، وما زال بها حتى شغفها هوى وملأ قلبها بعبادته، ولكن كبرياءها منعها من أن تكاشفه بحبها. فهي فخور كالغزال الآبد، وهي تحمل من أيام الذل ميسم الصبر والاعتصام بصمت عجيب كله تحفز وتحد. ألم تقل بوبنوفا عنها: «سواء ضربتها أو تركتها لشأنها، فإنها لا تفتح فمها كأنه مترع بالماء أبداً» بل ألم تقل هي عن نفسها: «إني لأشتم فألوذ بالصمت، وأضرب فلا تنفرج شفتاي عن كلمة، ومهما عاثت اللوعة في نفسي فإن عيني لتضنان بالدموع لأن امتناعي عن البكاء يوغر صدورهم حقداً ويضرم جوانحهم غضباً».

وفي كتاب «**ذكريات بيت الأموات**» أمثلة عديدة على هذا اللون من الاستشهاد بين السجناء الذين كان دستويفسكي يقول: «إنهم أطفال، أطفال ما في ذلك ريب، وإن تجاوز بعضهم سن الأربعين»، فمنهم من كان يتحدى

مرضه فلا يعرض نفسه على الطبيب مع أنه في أشد الحاجة إلى ذلك، ومنهم من كانت لهم أفكار وهمية تبين لهم ضلالها ومع ذلك، فإنهم يتشبثون بها ويرفضون نبذها لأنهم قد احتملوا الكثير من الآلام في سبيلها، ومنهم أمثال ذلك الشيخ الهادىء الذي كان يقضي وقته في الصلاة وبينما هو مسترسل في قراءة الكتاب المقدس يوماً قذف مدير السجن بآجرة وصرح بأنه لم يضربه لحقد أو ضغينة يحملها له وإنما يتقبل التعذيب الذي سينجم عن فعلته!

إن الذين يقاسون البؤس والإرهاق والاستعباد ليعبرون بتعذيب أنفسهم عن سخطهم على الحياة التي يعيشونها راغمين ويتحملون مساوئها كارهين فكأنهم وقد يئسوا من الخلاص حيث باتت الآلام والمسرات عندهم سواء، متخذين من الحياة موقفاً سلبياً، كالمنتحر يظنه الناس زاهداً في الحياة وهو أشدهم لها حباً ولمتاعها طلاباً حتى بلغ من جنونه بها أن يجد في الموت من أجل النعيم شيئاً من النعيم.

ويضيق أفق الخيال. ويتعذر المتاع بالحياة وتشتد رغبة النفس إلى ذلك المتاع. وإنه لعزيز على النفس مصيرها الفاجع، وإنها لتريد أن تعلو على صغارها وتعلو على بؤسها وتعلو على حاضرها. فإذا لم توفق في تلك الثورة كما تروم انكفأت على ذاتها وانقلبت على البقية الباقي في حياتها من الجمال والراحة تشوههما بالقلق، وتستهين بهما بالشك، وتعيث بهما بمختلف صنوف الآلام، لتشعر نفسها بسموها وتتخلص من ضآلتها وتثبت أن الواقع الذي تعانيه دون الأمل الذي تهواه وتبغيه.

وكلما كثر التناقض بين العالم الخارجي والعالم النفسي، كثر الشك تبعاً لهذا التناقض العميق. ولكما انكشف للنفس عجزها عن التعبير والتغيير أمام القوى الخارجية القامعة، ازداد كبتها وانطواؤها وتمزقها ولجأت إلى أشتات السبل لمعالجة شعورها المميت، في صراع داخلي أشبه بسنفونية غامضة تحتدم ألحانها لتصفو وتنخفض لتسمو، وبينا هي تنحدر إلى صمت القبور إذا بها ترجف الرجفة الكبرى فكأن الأرض قد زلزلت زلزالها واستفاق الكون من سبات عميق!

وقد كانت روايات دستويفسكي كلها مسرحاً لهذا الصراع النفساني الخفي الذي اكتشفه سيغموند فرويد وفسره وحدد معالمه بعد صدور تلك الروايات بنصف قرن.



دستويفسكي السجين في سيبيريا

في 22 نيسان ـ إبريل سنة 1849 قبض على فيدور ميخائيلوفيتش دستويفسكي وجماعة من أصحابه، بتهمة التآمر على قلب النظام والدعوة إلى الثورة، وأنزلوا ضيوفاً على السجن مدة ثمانية أشهر، وكان الأديب الشاب في الثامنة والعشرين من عمره، ولم يكن ليدري كيف تورط في هذه المؤامرة، إذ لم يكن التآمر من شيمته ولا كانت الثورة رسالته.

وفي صباح 22 كانون الأول ـ ديسمبر أفاق المعتقلون على جلبة تقترب من الزنزانة، ثم فتح الباب وأطل مدير السجن، فأعاد إلى السجناء ثيابهم المدنية وأمرهم بارتدائها على عجل، فامتثلوا إلى الأمر وخرجوا إلى فناء السجن تحرسهم ثلة من الجند، وجاءهم الأمر هناك بالصعود إلى عجلات مقفلة كانت تملأ الساحة، وما كادوا يستقرون على مقاعدهم فيها حتى انطلقت على طريق ملساء سوية والمتهمون ساهو الوجوه شاردو الأذهان، لا يدرون إلى أين يسلك بهم من فجاج الأرض.

وتوقف الموكب بعد سير طويل، ونزل الشبان في ثكنة سيموفسكي، ونظروا حولهم فإذا الساحة مغطاة بالثلج ومن حولها جمهور حاشد من الناس الذين تسامعوا النبأ فتوافدوا من كل صوب.

وتصفح دستويفسكي وجوه المتهمين فلمح بينهم نفراً من أصحابه، منهم سبيكينيف الوادع وبيتراشفسكي الفخور وغريغوريف المريض، فاتجه نحوهم يعانقهم، ولكن صوتاً متصلفاً أمره بالعودة إلى مكانه، فعاد وعادوا، واقترب منهم كاهن شاب يتشح بالسواد ويحمل الصليب والإنجيل، وتقدمهم إلى منصة خشبية قائمة في صدر الساحة، وتهامس الشبان وهم يتبعونه:

ـ ماذا يراد بنا؟

ـ سيتلى علينا قرار المحكمة.

ـ سيقضى علينا بالأشغال الشاقة.

ـ بل نحن مساقون إلى الموت.

وصعد المتهمون إلى المنصة الخشبية ومن خلف كل منهم جندي شاهر سيفه. وكان دستويفسكي رابط الجأش واسع الأناة، كأنه لا يحس ما يجري حوله، ثم شعر برغبة ملحة في أن يروي لرفيقه مومبلي قصة تخليها في السجن، ولكن صوتاً حاداً ارتفع في ذلك السكون فأيقظه وروع صحبه:

ـ انزعوا قبعاتكم فسوف يتلى عليكم قرار المحكمة.

كان البرد يلفح وجوه الشبان وينتزع الدمع من أعينهم، فخلعوا قبعاتهم وأقبلوا بسمعهم على حكم القضاء، وكان الخطيب يقرأ القرار بصوت رتيب أجوف، فيذكر اسم المتهم ويعدد الجرائم المنسوبة إليه ثم يقول ببساطة مثلجة: «. . . فحكم عليه بالموت». وجاء دور دستويفسكي وكان شأنه كالآخرين.

ارتعش دستويفسكي كمن استفاق من حلم. وفي تلك اللحظة بددت الشمس حجاب الضباب وأضاءت قبة الكنيسة القريبة، فتمتم:

ـ يستحيل أن نعدم!

فلم يجب مومبلي واكتفى بأن أشار إلى عربة في الساحة يغطيها ستار رقيق، واستطاع دستويفسكي أن يميز من خلال الستار توابيت خشبية أعدت ولا ريب لتضم جثث المحكومين، ولكنه لم يستطع أن يسلم كزميله بالأمر الواقع. وكان قد لمح كرة صغيرة من الضوة تختلج على وجه أحد الجنود، هي رجع النور الذي يتوامض على زره النحاسي، فتلهى هنيهة بالنظر إليها، ولم يرفع عينه عنها حتى غادر الخطيب المنصة ووقف الكاهن مكانه يعظ المحكومين ويذكرهم بالحياة الأخرى والسعادة التي تنتظر التائبين، ثم قدم لهم الصليب

ليقبلوه ودعاهم إلى الإعتراف، فلم يستجب لدعوته إلا شابوشنيكوف وهو رجل من عامة الشعب.

ركع دستويفسكي فقبل الصليب الفضي الصغير، ثم انتصب واقفاً وقد أذعن للأمر الواقع، وتلاشت آماله الأخيرة، على أنه كان يهمس في ضميره بأنه لم يستحق هذا العقاب، ولم يستحقه واحد من رفاقه، وقد شعر بالظلم كأعظم وأروع ما يكون، وشاركه المحكومون هذا الشعور الذي رفعهم إلى مصاف الشهداء.

اقترب الجلادون من المحكومين، فخيم السكون على النفوس وأخذ القلق بالأنفاس. ودقت الطبول في الحقل دقات حزينة كان لها في الثكنة صدى ثقيل لا ينتهي، وركع المحكومون كما أمروا، فحطم الجلادون السيوف فوق رؤوسهم رمزاً للزوال، ثم ألبسوهم قمصاناً بيضاء، واقتادوا بتراشفسكي وومبلي وغريغوريف فأوثقوهم وعصبوا أعينهم، وصوّب الجنود بنادقهم إلى صدورهم.

أطبق دستويفسكي جفنيه شارد اللب موزع الخاطر. إنه السادس في هذه القافلة التي تستعد للرحلة الأخيرة، وسيكون الدور المقبل دوره، وما هي إلا دقائق خمس حتى يقضى عليه وتطوى صفحته إلى الأبد.

وخيّم عليه ضيق رهيب وقلق عاصف، يجب ألا يضيع هذه الدقائق الخمس بددا. ينبغي له أن يعيشها كأحسن ما يستطاع، وأن ينعم بالمسرة الفضلى، قبل أن يهوي في لجة الليل السحيق. ولكنه أنفق في هذا الخاطر ثلاث دقائق، ولم يبق لديه إلا دقيقتان يودع صحبه في واحدة منها، ثم يستجلي العالم الآخر مرة في الدقيقة الأخيرة.

ولكن فيم يفكر وماذا ينظر؟ إنه شاب يتدفق قوة وأملاً، وهو عظيم الإيمان بقوته موفور الثقة بموهبته، وهو أيضاً على قيد خطوات من الموت! إنه حي، موجود، ولكن إلى لحظات معدودة فقط، ثم يصير إلى فناء مطلق، أو يغدو شيئاً آخر أو شخصاً آخر.

ونظر إلى قبة الكنيسة حيث يسطع ضوء الشمس ووهج الذهب، ولم يحول عينه عنها، فقد خيل له أنه لم يبق في الوجود إلا هو وهذا الضوء الهادىء، وغدا يمتزجان معاً ويكونان شيئاً واحداً، أجل، لسوف يذوب في المجهول ويغدو شبيهاً بهذا الضوء وهذا الهدوء!

واستحوذ عليه خوف راجف، وتساءل: «وإذا لم أمت؟ إذا أعيدت إليّ الحياة؟ يا للخلود؟ لأملكن العالم كله، وأجعلن من كل دقيقة قرناً، ولا أضيعن لحظة واحدة من عمري».

ولكن هيهات، لقد كذبت الظنون. إن صوتاً رهيباً ارتفع في ذلك الصمت الساجي فأيقظه من أحلامه وأعاده إلى الحقيقة المرة:

ـ أطلقوا النار..

وإذن فقد أطبق القضاء وقضي الأمر، وستسقط هذه الأجسام القوية خائرة منهارة، ثم يساق هو ليعاني المصير نفسه. بيد أن شيئاً من هذا لم يحدث، فالنار لم تطلق، وها هو بيتراشيفسكي ينزع العصابة عن عينيه وينظر حوله بثبات من دون أن يفهم معنى لما يحدث!..

ويعود الخطيب إلى المنصة مرة أخرى ويقرأ بصوت جهير:

«إن المجرمين الذين استحقوا عقوبة الإعدام وفقاً لمواد القانون، قد نالوا العفو بعطف من العاهل الكريم».

خفق قلب دستويفسكي خفقاناً شديداً، ووجد في النبأ غبطة لا تعدلها غبطة، فماذا يضيره وقد نجا من الموت أن يسجن وينفى ويتعذب؟

كان ذلك موقفاً رائعاً ترجح فيه بين الموت والحياة، فلم ينسه طيلة حياته ولم يتردد في أن يقول لزوجته بعد عشرين عاماً: «لا أذكر يوماً أسعد من ذلك اليوم!».

وقد أشار إلى هذه الحادثة في رواية «الأبله» وكتب في «**يوميات كاتب**»:

«أو تعرفون ما هي عقوبة الإعدام؟ إن من لم يلمس الموت ويحسه لا يستطيع فهمه أبداً».

ومن عجب أن رفاقه لم يطربوا لهذه النتيجة ولم يكتموا سخطهم على المهزلة التي مثلت، وتمردهم على الحياة التي أعيدت لهم وأسفهم على الموت الذي أفلتوا من براثنه بأعجوبة، حتى لقد أفضى الغضب بغريغوريف إلى الجنون.

وأنكر الناس أن يكون للقيصر علم بما حدث، ثم تبين إن نقولا الأول هو الذي دبر الأمر ليقذف الرعب في قلوب الشبان، ولكنه تجاوز حدود المحكمة فقتل عاطفة الندم في قلوب المتمردين.

وما كاد فيدور ميخائيلوفيتش يعود إلى السجن حتى كتب إلى أخيه ميشال: «قضي علي بالأشغال الشاقة مدى أربع سنوات، وبأربع سنوات أخرى بالخدمة العسكرية، وأظن أننا سنسافر إلى سيبيريا اليوم أو غداً».

«طلب أن أراك فأنبئت باستحالة الأمر. إلا فاعلم يا أخي أن قوتي لم تهدم وشجاعتي لم تتبدد. الحياة هي في كل مكان، لأنها تجيش في نفوسنا وليس في العالم الذي يحيط بنا. وسوف أكون في سبيريا وبعدها رجلاً بين الرجال، ومهما اختلفت الظروف وتعاقبت الأحداث فلن أضعف وأنهار. هذه هي الحياة، وهذا هو معناها الحق، وقد أدركته أخيراً وشاع في جسدي ودمي».

«لعل الأيام تسمح بأن نلتقي يوماً، فاعتن بنفسك وحاول أن تعيش حتى ذلك اللقاء. أجل، قد يقدر لنا أن نتعانق ملياً وأن نستعيد ذكرياتنا الغابرة ونسترد الآمال الحلوة التي اقتلعها الآن من قلبي الدامي».

«ترى أيمكن ألا أمسك بالقلم بعد الآن؟ لئن حرمت علي الكتابة فإني مائت لا محالة. ولخير لي وأروح لقلبي، أن أسلخ في السجن خمسة عشر عاماً طوالاً، على أن يكون في يدي قلم.

«إذا كنت قد خلفت لدى بعض الأصدقاء أثراً سيئاً، فقل لهم أن ينسوا تلك الذكريات البغيضة، فليس في قلبي اليوم أثر لحقد أو ضغينة، وإني لأتوق إلى معانقتهم جميعاً. وكلما نظرت إلى الماضي وفكرت في الزمن الذي أضعته في تيه الجهل والضلال، اكتسحني ندم غامر، واعتزمت أن أجهد نفسي حتى تستقر على الصلاح. هذا هو أملي وعزائي الأوحد».

«أواه! متى ألقاك.. متى ألقاك؟ إني لأنتزع نفسي من كل ما أحب، وعسير علي هذا. إنه ليعز على المرء أن يجعل من نفسه شطرين. وداعاً.. ولكن سألقاك. أنا واثق من هذا وعليه حريص».

إلا أن مدير السجن سمح لميشال ميخائيليوفيتش والكاتب ميليكوف بأن يودعا فيدور دستويفسكي قبل رحيله إلى المنفى. وكان بين الأخوين لقاء قصير استطاع دستويفسكي أن يتمالك أعصابه فلم تدمع له عين ولم يضطرب فؤاد، ومضى يعزي ميشال بأعذب الحديث:

«كفى حزناً يا أخي، فما أنا بمنحدر إلى قبر، ولا أنت في مأتم. لن ألقى في المنفى حيوانات عجماء كما يخيل لك، بل رجالاً قد يكونون أنبل مني شعوراً وأسمى نفساً. وأنا عائد إلى الكتابة متى غادرت السجن، فقد عرض لي في الشهور الأخيرة كثير من الأمور، وسوف تعرض لي هناك أمور أخرى، وكلها جديرة بأن تكون حافزاً لموهبتي ومادة لأدبي».

هذا الرجل الذي كان إلى شهور خلت، يبتدع لنفسه بنفسه أمراضاً وهموماً وأحزاناً، وهو في ربع الشباب ومطلق الحرية، هذا الأديب الحائرالذي كان يعاني اضطراباً في جسده وخلقه، يتقبل اليوم، برحب صدره وثبات جنانه، تجربة الإعدام وفجيعة الفراق ووحشة الإغتراب، ويسير بقدم ثابتة إلى الأسر والصقيع والعمل الشاق في مجاهل سيبيريا.

وليس ذلك بمستغرب من رأيه ولا مستنكر من خلقه. فدستوفسكي رجل المشاعر المتحفزة والعواطف المتطرفة، وهو لا يسكن ويطمئن إلا ألى الشاذ من الأمور، ولا يتنفس ملء رئتيه إلا في احتدام الأنواء وثورة العواصف: «أما أنا

فقد أطلقت إلى المدى الأقصى، ما لا تجرؤون على إطلاقه إلى منتصف الطريق. ولعلي إذن أشد إحساساً منكم وأوفر حياة!».

كبل دستويفسكي بالقيود وقاده الجند مع بعض المحكومين إلى عربة تنتظر في الفناء، ثم انطلق الموكب في منتصف الليل. وكانت سان بطرسبورج تمور بالنور، والناس يحتفلون بمولد المسيح، عيد دستويفسكي المفضل. ثم ما لبثت العجلة أن انغمست في الظلام، وبدأت تضطرب تحت الرياح المتناوحة، فيهتز الصباح ويوشك الضوء الباهت على الفناء.

وسجا الليل، وطال السرى، وأخذ الكرى بمعاقد الأجفان، ودستويفسكي مسند رأسه إلى حافة النافذة، يطل منها على الفضاء الواسع ويغرق في ذهول عميق...

لقد خلف ماضيه وراءه، واتجه شطر المستقبل المجهول.. فمتى، متى تنتهي هذه الطريق الضيقة البيضاء؟ ومتى تقف العجلة المنطلقة بالكاتب العظيم إلى «بيت الأموات»؟..

في صباح اليوم الثالث والعشرين من شهر كانون الثاني ـ يناير سنة ١٨٥٠، أوفت القافلة على «أومسك» بعد رحلة مجهدة، واقتيد دستويفسكي إلى الحصن الرهيب القائم في ظاهر المدينة. وبعد أن ألبس رداء خاصاً كثير الألوان، أقبل «المزين» فحلق له شعره بآلة لا تشبه الموسى في شيء، فهي قطعة من الحديد لا تقضب الشعر بل تكشط اللحم وتدميه.

كانت هذه العملية التي ظلت تتجدد في كل أسبوع، أول عذاب عاناه دستويفسكي في حصن «أومسك» ولم يكن عذاباً جسدياً وحسب، فقد خرج من بين يدي «المزين» بهيئة غريبة تستدعي الضحك والرثاء، لأنه لم يحلق له شعره بأجمعه، بل حلق جانباً واحداً منه وأبقى على الجانب الثاني من شعر رأسه ولحيته وشاربيه!

وكان كريفتزوف مدير السجن ضابطاً شديد الكبر غليظ القلب، قد استفزه

الزهو إلى بغي فادح، وبلغ من استبداده إنه كان يعاقب المحكومين على أقل بادرة أو هفوة، وكثيراً ما انهال على أحدهم بالضرب لأنه ينام على جنبه الأيمن، أو يتكلم بصوت عال أو يهذي في نومه..

أما السجناء فكانوا أنماطاً مختلفة من الناس، وضروباً متباينة من الجنسيات، فيهم القتلة واللصوص والمزيفون، والمجرمون الأخلاقيون أو السياسيون، ومنه الشراكسة واليهود والمغول والأوكرانيون والبولونيون والموسكوبيون، وبينهم من يمزقه الندم فيفضي بسره لكل من يراه ومن تخدر شعوره وتبلد ضميره فتطمأن لمصيره غير تائب ولا نادم.

بين هذا الحشد الحافل من المجرمين غبر دستويفسكي سنيه الأربع، فرأى أعجب ما تراه العين، وسمع أغرب ما يسمعه إنسان. وكان المخدع يغلق على السجناء كالسائمة من المساء إلى الصباح، فيكتظ جوه بأنتن الروائح، ويلتف السجناء في حلقات كبيرة يعاقرون الخمر ويلعبون الميسر ويتبادلون أقبح السباب، ثم يتهاكلون على الأرض وقد خارت منهم القوى وخمدت ثائرة الأهواء.

وإذا ما فني ضوء الشموع وأخذ كل سجين مضجعه، وهدأت الغرفة إلا من جرس السلاسل وهذيان المحمومين، نشد فيدور ميخائيلوفيتش النسيان في غمرة النوم، ويده تتلمس الأنجيل وتشد عليه كأنها تتلمس منه العون وتجد فيه العزاء.

وكان المجرمون مطمئنين لاعتقادات تقليدية رسخت في قلوبهم ولم توجه توجيهاً سليماً فصارت حجاباً بينهم وبين إدراك الحقائق، فاستقبلوا دستويفسكي ودروف بالحذر والاحتراس، وشعروا بأنهما غريبان عنهم فامتثلوهما هدفاً لسخطهم ومجونهم، إنهما مثقفان، فهما ينتميان إذن إلى تلك الطبقة العدوة، فضلاً عن أن جريمتهما كانت مبهمة تكتنفها الأسرار، فمن قتلا.. وماذا سرقا؟..

«لو خلي بينهم وبيننا لأكلونا.. ولعمري هل كنا نستطيع عن أنفسنا

دفاعاً؟ . . . لقد قضينا أعواماً طوالاً ونحن لا نسمع منهم غير هذه الشتائم. أنتم النبلاء تلهبون ظهور العبيد بالسياط . . لقد كنتم أسياداً وكنتم تعذبون الشعب، ولكنكم اليوم أضعف من أحط واحد منا!».

ولكن فيدور ميخائيلوفيتش قد راضى نفسه على جميل الصبر وكريم العزاء، وما فتىء يتقرب إليهم ويتقبل شتائمهم بالوجه الطلق والخلق الرحب. كان يحبهم ويمتزج بهم، يضحك لما يضحكون، ويحزن لما يحزنون، ولا يبرمون أمراً ويجمعون على رأي إلا وكان له صداه القوي في نفسه. كان يريد أن يكون واحداً منهم، ولكم تمادى في طلب صداقتهم تمادوا في احتقاره وظنوا به الظنون.

واعتزم المحكمومون يوماً الاحتجاج لدى الضباط كريفتزوف على سوء الغذاء، وحاول دستويفسكي الإنضمام إلى الوفد، فصرخ به أحدهم:

ـ ماذا تصنع معنا؟ تعالوا انظروا قاتل الذباب، لقد خرج من جحره هو الآخر . .

ـ إني لآكل معكم، فنحن رفاق . .

ـ أنت؟ . . وكيف تستطيع أن تكون لنا رفيقاً؟

كان المجرم العادي يدخل السجن فيما ينقضي يوم وليلة حتى يتبادله والمحكومين الآخرين الحدب والعطف. أما المثقف فلا يكتسب عطفهم إلا بشق النفس وجهد الطاعة، لأنهم يعتبرونه من الطبقة المتعسفة الممتازة، وقد تمر الشهور وتنفرط الأعوام ويظل بعيداً منهم غريباً عنهم، يضيقون به ذرعاً ويضنون عليه بكلمة عطف أو ظاهرة ولاء. ولم يكن في السجن من المثقفين إلا عدد من البولونيين الثائرين على الاستعمار الروسي، وكان شأن دستويفسكي معهم شأنه مع الآخرين، فهم وطنيون متحمسون يجهرون بحقدهم على الروس ولا يستثنون من بغضهم رجلاً ضعيف الرأي كدستويفسكي يزعم أنه أحد الساخطين على النظام القائم والداعين إلى الإخاء والحرية، ثم يستكين للظلم

ويغضي على المهانة ويتحمل العذاب بخضوع ذليل!..

وكان خضوع دستويفسكي أمراً عجباً، فقد ارتضى البلاء، وصبر على العسف، واستلان خشونة المنفى، وشعر بأنه مسير بإرادة خفية لا مرد لها ولا تجدي الثروة عليها، كان يضج ويصخب ويجادل في الحق والباطل، فإذا بصوت أعلى من صوته ويد أقوى من يده وإرادة أعظم من إرادته، تطبق عليه وتقود خطاه وتقرر مصيره، فيحس أنه لا شيء ويجد السعادة كلها بهذا الإحساس والاستسلام لله والفناء فيه.

وأمر الإيمان كأمر الوحي والحلم والرؤيا وما يحدث في أنفس الناس من حيث لا يعلمون، فقد يعمر قلب الإنسان لحظات معدودات ينعم فيها بالغبطة المثلى، غبطة المستسلم إلى ظهير قوي رشيد، ثم يستيقظ من ذلك الحلم الرغيد ويثوب إلى الواقع المر ليعاود الكفاح ويستشعر العذاب ويشق طريقه بنفسه.

أن راسكولنيكوف بطل «**الجريمة والعقاب**» لم يقتل في حال وعي بصير بل بدافع قوي لا يغلب. كان يشعر بقوة عظيمة تدفع به إلى الجريمة، وكان راضياً بهذا الشعور مستسلماً لحكم القدر، ولكنه ما كاد يضرج يديه بالدم حتى أراد أن يستعيد حريته، فشعر من ثم بالمسؤولية وأنكر صنيعه ولاذ بالهرب من عدو غير منظور. ما دستويفسكي فقد تغلب على عذاب المنغى لأنه قبل به، واستطاع إسعاد شخصيته لأنه استطاع أن يتخلى عنها، وقدر له أن يربح لأنه رضي أن يخسر.

كان المحكومون يرسلون إلى الأشغال الشاقة فيجرون العربات ويديرون الطواحين ويسحقون الرخام. واتفق أن طائفة منهم كانت تنقض بناء على ضفة «**الإيرتيش**» فسقطت الفأس من يد أحدهم في النهر، ولما أمره الحارس بإعادتها خلع ثيابه وألقى بنفسه في الماء بعد أن ربط جسده بحبل أمسك فيدور ميخائيلوفيتش بطرفه لإنقاذ الرجل إذا ما أحدق به الخطر. ولكن الضابط كريفتزوف أقبل في تلك اللحظة وهو يترنح من السكر، وأمره بأن يرخي الحبل

ويعود إلى عمله، فأبى دستويفسكي الاستجابة لإرادة المدير على الرغم من تهديده ووعيده.

ولما كان المساء عاد دستويفسكي إلى المخدع شاحب الوجه ثائر النفس ملتوي الشفتين. واستفاق السجناء في وهن من الليل على عواء غريب، فإذا بدستويفسكي يعاني نوبة صرع عنيفة، فيضرب الجدار برأسه ويتخبط على الأرض كالحيوان الذبيح.

وقيل أن كريفتزوف عاقب فيدور ميخائيلوفيتش بالجلد لرفضه الاستجابة لأمره. ولكن الكاتب لم يشر في مذكراته إلى ذلك. ومهما يكن من أمر فإن عذاب المنفى قد ضاعف الميل الطبيعي لدى دستويفسكي لتقبل الصرع، هذا الداء الذي لازمه طيلة حياته.

ومرت الأيام ثقيلة متشابهة ودستويفسكي يعيش في فراغ وعزلة رهيبين. ولم يأخذ هذا الجو العبوس بالجلاء إلا وقد استوفى أعوام السجن أو كاد. فقد تفاهم في السنة الأخيرة مع بعض السجناء فعاملوه بالرفق واللين، وتعرّف إلى عدد من سكان المدينة فكانوا يأتونه بما يحتاج إليه، وسمح له بقراءة الكتب والمجلات فكان ذلك عيداً لقلبه وبعثاً لفكره.

واصفرت أوراق الشجر، وذوى العشب في السهول، وغطى الثلج مهابط الأودية ومشارف الجبال، وأقبل دستويفسكي في ليلة النصف من شباط ـ فبراير سنة ١٨٥٤ يستعيد ذكريات السجن استعداداً لمغادرته. وكان حزيناً ذاهب اللب. فقد ذوى في هذه الحظيرة شبابه وتصوحت آماله. دخلها شاباً غض الحداثة وافي القوة طامح الطرف، وسيغادرها حطاماً محطم الرجولة مكتهل النفس يائس الغد. وطاف في الصباح الهازج على المحكومين فودعهم واحداً واحداً:

«امتدت نحوي عشرات الأيدي، ولكن ما أقل من ضغط على يدي في مودة وحب! أما الذين حسبوا أنني لن أغادر السجن حتى أغدو رجلاً آخر، فقد أولوني ظهورهم وضنوا علي برجع التحية، ولم يتورع بعضهم عن تشييعي

بنظرات الحقد والاحتقار!».

ثم حطمت السلسلة عن رجليه فحملها بيده ووقف بتأملها ملياً، وإذا بطائفة من خاصته تهتف به: ـ سر على بركات الله.. ليتولاك الله برعايته!

فشعر برغبة ملحة في البكاء والصياح، ولكنه لم يستطع إلى ذلك سبيلاً، وغادر السجن واجماً منقبض الصدر وعيناه تنظران إلى السماء في شيء من الحيرة وكثير من الذهول.

لم يفرغ دستويفسكي في كتابه «**ذكريات من بيت الأموات**» جماع ما اختزن ذهنه من الصور وانطبع في قلبه من الأحاسيس، وإنما ألقى عن كاهله عبئاً يفدحه ليرتفع من ثم إلى أوج الخيال والفن. لقد أقصى عنه تلك الذكريات بما انطوت عليه من قسوة وظلمة، ليحتفظ بهدي السجن ونوره. وسرد في هذه الرواية ما لاحظه وشاهده ليروي في رواياته الآتية ما استوحاه وتعلمه. وما أعظم ما استوحى وتعلم! فهناك في أقصى الشمال، وفي تلك الحظيرة البغيضة، وجد دستويفسكي نفسه، واكتشف الشعب والإنجيل لكانا له عوناً على الرشاد ورائداً إلى الصواب.

كان المثقفون الروسيون يترجحون بين قوتين متباعدتين هما الشعب والقيصر، ولكل منم هاتين القوتين المتباينتين سرها الذي تعتصم به ولا يستطاع النفاذ إلى أغواره. على أنهم كانوا يستشعرون جاذباً روحياً يتسلط عليهم ويجذبهم نحو الشعب بقوة لا تغلب.

أما دستويفسكي فقد خبر هذه العاطفة في طفولته ثم صحبته كل حياته. ففي بلدته «دارفويه» تعلق بالفلاحين، وفي المستشفى أحب المرضى والمعذبين، وفي سان بطرسبورج وقف إلى جانب الطبقة العاملة، فلما دخل السجن رأى الشعب الذي أحبه وناضل من أجله يزدريه ويقصيه لأنه يراه إلى الطبقة الحاكمة أقرب منه إلى الطبقة المحكومة، فتقبل هذا الإباء باللين والود، وانحنى حادباً على الهوة التي تأبى ابتلاعه، وجاور هذه الأضاحي البشرية التي شوه الجهل نفوسها وصوح الفقر فضائلها، فشاهد الجمال من خلال القبح ولمس الروح

الصافية التي تكمن في الأعماق، وما أكثر ما كانت البصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر، وجمال المعاني المدركة بالقلب أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار:

«اكتشفت في المنفى رجالاً كاملين وطبائع إنسانية أصيلة، ونفوساً عظيمة بعمقها رائعة بجمالها، كالذهب الدفين تحت ركام الدنس وأنقاض الرجس».

وآثر هذا الاكتشاف فيه وران عليه كالسحر، فليس الشعب ذكياً ولا مثقفاً، ولكنه كل ما تبدعه أيدي أبنائه.. إنه لا يفكر ولكنه يحس، وبالإحساس لا بالفكر يمتزج الإنسان بربه.

ما الشعب إلا طفل ساذج، بعيد عن البدع الإجتماعية والأكاذيب العلمية، ممثل للحقيقة، متمسك بسر الحياة، قريب من قدس الله.. فاكتشافه إذن لله والدنو منه دنو من الله.

يا لها من إضاءة أصابت من نفسه موقعها من قلبه حياة:

«إنه لشعب عجيب! لم يذهب وقتي جزافاً، فقد فهمت الشعب الروسي جيد الفهم، وقليلون هم الذين عرفوه كما عرفته».

اطمأن دستويفسكي لهذه الفكرة وتشبث بها، وعبر عنها في أدبه وحياته جميعاً. ويروي بيرتز أن طبيباً تحدث إلى دستويفسكي في منزل سوسلوفا فأخذ عليه آراءه الصوفية عن مستقبل روسيا، وسأله:

- أنى لك الحق بأن تتحدث باسم الشعب الروسي؟ فكشف دستويفسكي عن رجليه وأشار إلى عضة السلاسل التي لم تزل بادية الأثر، وقال:

- هذا هو حقيقي!

وهكذا أصبح الشعب مثله الأعلى والإنجيل كتابه الأوحد، وغدت رواياته صراعاً عنيفاً بين الروح والمادة، تبتدىء بأعقد المشكلات الإجتماعية وتنتهي بالبحث عن الله والتبشير بالإنسان الجديد.

فهذا الطالب الذي يقتل المربية ليسرقها، وهذا الفتى الذي يبغض أباه ويتربص به ريب المنون، وهذا الرجل الذي ينتحب على عتبة منزله وقد أغلقته زوجته من دونه، لا يعانون في حقيقة الأمر إلا مآسي نفسية، وليست، آلامهم إلا رموزاً لمثل رفيعة لم تجد سبيلاً للظهور على صفحة الشخصية الواعية.

وأدبه كله من هذا الطراز العميق، وكيفما قلبت الطرف فيه وقعت على مخلوقات معذبة تحاول الخلاص من قلقها الروحي وآلامها النفسية في أشتات السبل. أما صراع الشك والإِيمان في نفسه وأدبه فهو أبين وأظهر.

«لشد ما عذبتني فكرة الله!».

هكذا قال أحد أبطاله وكأنه يترجم عن نفس دستويفسكي الذي عانى من فكرة الله نصباً. فقد كان شاكاً ولكنه يشعر بظمأ إلى الإِيمان، ويجد في المسيح صورة الخير المحض والكمال المطلق، فيأتم به ويلوذ بتعاليمه، ولو تبين له بصادع الحجة وقاطع البرهان أن الحقيقة لا تجتمع والمسيح على صعيد واحد لآثر أن يكون مع المسيح على أن يكون مع الحقيقة.

غادر فيدور ميخائيلوفيتش السجن ليلتحق بالجندية في سيميبا لاتنسك، وهي مدينة صغيرة تخيم فيها القوافل التجارية وتغير عليها جماعات اللصوص، تنفيذاً للحكم الصادر بحقه. وكانت الخدمة قاسية، فأنهكت التمارين العسكرية والحراسة الليلية قواه، ولم يكن المستوى الأدبي في الجيش بأرفع من مستوى السجن، ولكن نفراً من أصحابه توسطوا لدى رؤسائه فسمحوا له بسكنى المدينة.

وفي تشرين الثاني ـ نوفمبر من العام ١٨٥٤ قدم البارون فرانجل إلى سيميبالاتنسك ليشغل وظيفة النيابة. وكان شاباً مثقفاً مترفاً فاستشعر الوحدة في هذه المدينة الضائعة في فلوات الأرض وقفر البلاد، ولم يجد من يفهمه ويتجاوب معه غير هذا الجندي البسيط الذي عرفه من خلال كتبه قبل أن تجمعه به المصادفة في أقاصي المعمور.

وهكذا غدا النائب القيصر صديقاً حميماً لدسصتويفسكي يحبه ويحترمه ولا يجد عن صحبته غنى. ودهشت الأوساط الراقية بادىء الأمر حين رأت الجندي المجرم صديقاً للنائب أثيراً عنده، فتحت له أبوابها مرحبة به باذلة جهدها لمرضاته.

ولكنه لم يكن ليستجيب إلى دعوة الداعين إلا لماماً، وإنما يقضي أكثر لياليه في منزل صديقه الجديد يدخنان جيد التبغ ويتناولان فاخر الطعام ويتبادلان بارع الحديث، ويقرآن مؤلفات غوغول وبوشكين.. فإذا ما تقدم الليل وغارت النجوم عاد دستويفسكي إلى منزله وشرع في تسجيل ذكرياته عن بيت الأموات على ضوء شمعة هزيلة.. ولكنه لا يكاد يخط بضعة سطور حتى يقذف القلم من يده ويستسلم إلى بارع الأحلام.. فثمة حب طارىء يستغرق خياله ويشغل ذهنه، حب امرأة مثلى ملأت طرفه الرغيب حسناً وقلبه الظمآن هوى.



الحب
في حياة دستويفسكي

تحدرت ماريا ديمتريفنا دوكونستان من أسرة نبيلة فرنسية الأصل، وكانت جميلة مثقفة تعيش في فيض من الأماني السعيدة، ويتسامى بصرها إلى عالم يموج بالنعيم ويمور بالغبطة، ثم عثر بها الدهر فساقها طالعها إلى كنف زوج مهندس يدعى إيساييف مازالت الخمرة تستعبده وتدفعه في طريقها الحادر حتى طرد من مناصبه واحداً بعد آخر، وطوحت به الأقدار إلى سميبالاتنسك، فانتهى إلى حياة ضالة متشردة، وراحت زوجه تبذل جهدها لإخفاء بؤسها عن العيون وتروض نفسها على الموت البطيء في تلك المدينة الضائعة بين الرمال.

والتقى دستويفسكي هذا الرجل ذات مساء، وهو يبشر بالتعاليم المسيحية ويفاضل بين المدنية والهمجية، فأحبه واسترسل إليه واستعان به في مقبل الأيام لإبداع شخصية مارملادوف في رواية «**الجريمة والعقاب**». . مارملادوف الموظف الطريد الذي يغرق في كؤوس الخمر ما يستشعر من الألم والتبكيت، بينما تعاني زوجته وقر السل، وتتاجر ابنته بجسدها لتقوم بأود الأسرة.

وكما قاد مارملادوف الطالب راسكولنيكوف إلى منزله، قدم إيساييف صديقه إلى زوجته. وسرعان ما اتصل بينهما ود اشتد في نفس المرأة وعاث في نفس الرجل. أما هي فقد عاودها رجع من صوت الماضي، فشاقها أن تستقبل في بيتها أديباً يستجيب لميولها ويحدثها عن عالم الحلم الذي انتزعت منه وفقدته إلى الأبد. وأما هو فقد شغف بهذه المرأة التعسة تضرج حمرة السل

خديها الغائرين، ويطفو على وجهها أمل شهيد وفرح بائس.

لم تؤخذ ماريا إيساييف بحب فيدور ميخائيلوفيتش كما خيل له، ولكنها لم تغلق نفسها من دون عبادته الصامتة فأقبلت عليه بكل جوارحها، واطمأنت إليه اطمئنان الغريق إلى حطام يتشبث به.

وكانت ماريا أول امرأة تحيطه بالحنان والعطف. ويقول أصدقاؤه وعارفوه إن ميوله الجنسية كانت راقدة هامدة حتى تعرف إليها. كان يعجب بالمرأة من غير أن يقربها، كابحاً وثبة الغريزة في نفسه، ومن ثم جاءت شخصية المرأة في مؤلفاته الأولى شخصية خيالية شاحبة تنقصها نبضة الدم وحرارة الجسد.

وكان لا بد لهذا الكبت العنيف لمطالب الغريزة الجنسية، من أن يطبع شبابه بطابع الانتظار اليائس والتعلق بطهارة واهمة تؤلمه، ويجد في ألمها راحة غريبة. وهكذا كان حبه لماري إيساييف حباً أخرس لا يفصح عن نفسه ولا يلتمع في أفقه رجاء. وكان هذا اليأس الصامت سماً يشيع في دمه ويسلبه شعوره بالحياة. فكأنه لم يعد ليعيش إلا من أجل هذه الساعات القلائل يقضيها ويده في يد معشوقته على مقعد في حديقة كوزاكوف بين مفاتن الربيع المتأخر.

في ذلك العاصف من غرام فيدور ميخائيلوفيتش، عهد إلى إيساييف بمنصب بسيط في قرية كوزانتسك، وغدا الفراق أمراً لا ندحة عنه. وفي ليلة رائعة من ليالي أيار ـ مايو أدب البارون فرنجل للزوجين مأدبة شائقة، وحرص على أن يسقي إيساييف من الشمبانيا فوق ما يستطيع. فلما أخذت الراح مأخذها منه، حمله إلى عربته فاقد الوعي، واستقل ديستويفسكي مع ماريا وابنها عربة أعدت لرحيل الأسرة، وتسابقت الخيول في هدأة الليل على الطريق اللاحق، وكان الجو مثقلاً بالشذى، والريح تجري رخاء، والقمر يريق ذوبه الفضي على غابات الصنوبر، فضاعف هذا الجمال الشعري ألم العاشقين، ولم يستطيعا وقد أزفت ساعة الوداع إلا أن يلقى كل منهما بين ذراعي الآخر معلناً حبه لصاحبه مقسماً له على الوفاء.

وانطلقت العربة بالأسرة الراحلة، ووقف دستويفسكي يشيعها، واللوعة

تهيض قلبه، ودمعه طفاح عينيه. ثم عاد به فرانجل إلى المدينة فبلغاها مع انبثاق الفجر. ولاذ الجندي العاشق بغرفته فلم يطق على الوحدة صبراً، وشعر بفراغ مخيف. وتتابعت الأيام وهو لا يزداد إلا حزناً وشجواً، حتى بلغ من يأسه وتهوسه أن يتذرع لعودة صاحبته بالرقي، وأن يختلف إلى عرافة يستطلعها نبأ مستقبله المظلم، ويسألها دواء لقلبه العميد.

وكادت الأنباء تترى من كوزانتسك عن استرسال إسايف في الشرب، وشقاء الزوجة الحسناء التي تردت من بؤسها إلى الحضيض، ولم تجد في تلك القرية من العزاء إلا صلتها بصديق زوجها الجديد فيرغونوت، وهو معلم غض الشباب بارع الظرف اطمأنت لصحبته ووجدت في حديثه بعض السلوى. فاضطرمت الغيرة في قلب فيدور ميخائيلوفيتش، ولم يبق ليأسه حدود. وكانت ماريا ديمتريفنا قد انقطعت عن الإجابة على رسائله، فادعى المرض وشخص إلى قرية زييف القائمة غير بعيد من كوزانتسك بعد أن أنبأها بمقدمه وطلب منها موافاته إلى هناك. ولكن إسايف مريض مشرف، ولم يكن في وسع زوجته أن تغادر للقاء عاشق لم تعرف حتى الآن ماذا يريد منها. فعاد ديستويفسكي من مغارته شاجن النفس منكس الرأس. ثم هاجه الشوق واشتد به الحنين، فحصل على إذن يجيز له التغيب عن الثكنة أياماً، وسافر إلى زييف مرة أخرى، وكتب إلى ماريا ديمتريفنا متوسلاً إليها أن تحضر لرؤيته، ولكنها لم تلب النداء أو تجب على الرسالة، فانصرف حزيناً آسفاً وعاود حياته الممضة في انظار الغد المجهول.

على أن انتظاره لم يطل، فقد تلقى في ١٤ آب (أغسطس) ١٨٥٥ رسالة من ماريا ديمتريفنا تعني إسايف وتصف مرضه ونزعه وموته، وكيف استدانت بل استجدت المال اللازم لجنازته، فذعر للنبأ واستطار له فؤاده وذكر سلوكه السيء تجاه ذلك البائس الذي محضه صداقته وأصفاه مودته فجازاه بالغدر والخيانة ولم يتورع عن الهزء به والانتقاص منه. ومن يدري، لعله تمنى موته كما اتفق له ذلك مع أبيه، فهو يشعر بأنه مسؤول أمام ضميره عن هذه الجريمة

كما شعر بمسؤوليته في مقتل أبيه. ولكنه لا يستطيع مع ذلك أن يقمع سيل البهجة القذرة التي فاضت في نفسه لهذه النهاية، فقد تداعى الحاجز الوحيد الذي يفصله عن حبيبته، وفي وسعه بعد الآن أن يتزوج منها.

وكان البارون فرانجل في بييسك فكتب له يرجو منه أن يمد السيدة إيساييف ببعض المال. وأن يرفق المبلغ بكلمة رقيقة ترضي كبرياء الأرملة المنكوبة. وكتب إلى أخيه ميشال يروي له قصة حبه لماريا ديمتريفنا ثم أبلغه بعد أسابيع عزمه على الزواج: «فقد تبادلنا الأقسام والعهود، وتثبت من حبها لي!».

والواقع أنها لم تكن تحبه، ولم تتردد يوماً مثلما ترددت حين عاهدته على الزواج. وإذا كانت تعجب به وتعطف عليه فهي تعرف من مرضه وبؤسه ما يصدفها عنه ويصرفها عن اتخاذه رفيقاً لحياتها. وفيما هو من أمرها على يقين جازم، انتهى إليه أنها اعتزمت الزواج من رجل آخر، ووردته رسالة منها تقول فيها: «فماذا أصنع إذا تقدم لي خاطب في متوسط العمر وكان ذا رزق واسع وجاه عريض؟ ماذا أصنع وبم أجيب؟».

ماذا تجيب؟ بل ما عساه يجيبها هو؟ أفيأخذه الغرور فينصحها بأن تفضله على رجل ثري وهو من جهد المعيشة على ما هو عليه؟ ولكنه لم يواجه الأمر من هذه الناحية، ولم يشأ أن يرى فيه غير خطر يحدق بكليهما معاً، إنها تحبه وتؤثره على الناس أجمعين، فإذا ما رغبت في الزواج من رجل مترف فما ذلك إلا لكي يعني بأمرها ويوفر لها مطالبها. ولا ريب في أن مثل هذه الصلة لن تكون باعث وئام وخير، ومن واجبه أن يحول دونها مهما عزت الوسيلة، وأن ينقذ صاحبته على الرغم منها، فهو بها أحق وأعنى. وهكذا كتب إلى فرانجل، وكان قد عاد إلى سان بطرسبورج، رسالة يقول فيها: «إذا فقدت هذه الملاك فسوف أموت لا محالة، سيلم بي الجنون أو ألقي بنفسي في عباب الإيرتيش. إن لي عليها حقاً. أتسمع؟ حقاً. وإني لأستحلفك بالله أن تكتب لها عن عظيم أملي في المستقبل».

وكتب لماريا ديمتريفنا رسالة مجنونة حفلت بالوعد والوعيد ومزجت الرجاء بالتهديد، فأجابته أن الأمر الذي ليس إلا خديعة توسلت بها لتبلو رأيه وتتثبت من حبه. فسكن إلى هذا الجواب زمناً، ثم عاوده القلق وترامت به الظنون، حين حدثته في إحدى رسائلها عن المعلم فيرغونوت فوصفت وداعته وأطرت ذكاءه. ولم يمض أيام معدودة حتى كان في كوازنتسك يبثها نجواه وشجنه، وبدأ العتاب رقيقاً رفيقاً ثم انتهى بالنحيب والخصومة. اعترفت ماريا ديمتريفنا بأنها تحب فيرفونوت حباً مبرحاً وقد تواعدا على الزواج. ومضى دستويفسكي يهزأ بهذا الحب الأرعن، حب امرأة مثقفة نهدت إلى الثلاثين من عمرها لفتى طائش لم يبلغ الرابعة والعشرين. ثم خلفها في ظلام الحيرة وارتحل إلى سيميبالاتنسك والموت يشيع في نفسه. غيّهما ورشده. فإذا بفيرغونوت يجيبه برسالة تعج بالشتائم، وإذا ماريا ديمتريفنا تغلظ له القول وتعلنه القطيعة.

وماذا صنع دستويفسكي وقد أجهد وأحرج؟ لقد استصرخ أصدقاءه في أومسك بأن يتساهموا لإعانة الأرملة التعسة، وكتب إلى فرانجل يتوسل إليه أن يسعى لترقية فيرغونوت إلى منصب يوفر له عيشة رافهة.

ونحن نجد مثل هذا الموقف في كثير من رواياته، فأبطاله يعبدون الألم ويقدسون التضحية ويرون في الخضوع نوعاً من الراحة. ولكن العجيب أن الخضوع الديني لا يلد في نفس أحدهم إلا وقد ضاقت عليه الرحاب وتقطعت به الأسباب، فكأنه ضرب من الكبرياء يأبى الإقرار بالغلبة، وهاجس من الأثرة يصر على إنكار الهزيمة، فهذا الخضوع الذي ينبجسُ من أغوار الشقاء إنما هو كبرياء وأثرة وليس تواضعاً أو تفانياً، وهو آخر وسيلة يستظهر بها الرجل على أحداث الزمان ويتخذها عوناً على وصل ما انقطع ورأب ما انصدع، وكأنه يقول للآخرين: لسوف أقابل إساءتكم بالإحسان، وظلمكم بالغفران، وبالخضوع الذي ترغمونني عليه انتزع العطف من قلوبكم!

ألم نر كيف أن أولئك المتألمين الخاضعين الذين يقبلون دور الضحية

ويتلذذون به ينتفضون فجأة متى شعروا بشيء من القوة أو تلمسوا في أفق حياتهم بارقاً من رجاء؟ كذلك كان شأن فيدور ميخائيلوفيتش حين رقي في ٢٠ تشرين الأول ـ اكتوبر سنة ١٨٥٦ إلى مصاف الضباط برتبة ملازم ثان. فقد شعر بأنه غدا في مركز مضمون يؤهله للحياة الزوجية ويكفل لماريا ديمتريفنا وولدها الهناء، فنهد إلى كوزانتسك وفتح قلبه لمعشوقته من جديد، وما زال بها حتى فاز بأمنيته وأخذ منها موثقاً يطمئن إليه. وحرص هذه المرة على التمسك بأذيال السعادة التي اشتراها بعاصف القلق وطويل العذاب، فأرسل إلى عم له يستدين منه ستمائة روبل، وكتب لأخيه ميشال أن يرسل له بعض الحاجات الضرورية، ولم ينس أن يذكر القبعة الرفيعة والثوب الأنيق والمعطف الفاخر و. . والقلانس «ولتكن ذات أشرطة زرقاء إذا أمكن!». وهكذا لم ينس الكاتب العظيم، وكان أخذاً بكتابه «**ذكريات بيت الأموات**» الرواية التي رفعته إلى مصاف الخالدين، لم ينس القلنسوة التي يجب أن تعتمر بها زوجته المقبلة وقت نومها، وحرص على أن يكون الشريط الذي يزينها أزرق اللون لكي يلائم الشعر الأشقر الذي يتوج الرأس الحبيب!

وفي اليوم السادس من شهر شباط ـ فبراير ١٨٥٧ عقد زواج فيدور ميخائيلوفيتش وماريا ده كونستان في كنيسة كوزانتسك الأرثوذكسية وسافر الزوجان إلى سيميبالاتنسك. وفي تلك الليلة، ليلة العرس، بينما هما في الطريق، ألمت بدستويفسكي نوبة الصرع، فوقع يتلوى ويحشرج ويضرب الأرض بجسده المنهوك، وفمه المتشنج يمج زبداً أصفر، وماريا ديمتريفنا قائمة على رأسه وقد أثلجها الرعب والغثيان.

أفقدّر عليها أن تعود سيرتها الأولى من الشقاء، أم تناصرت عليها الخطوب لتجعل منها ضحية هذا الرجل الغريب، فيفرض عليها حبه ويقودها إلى هذه الهوة راغمة؟

لقد خيل لها أنه خدعها خديعة لا تغتفر، فأغلقت قلبها من دون الود اليسير الذي تحمله له والجاذب الروحي الذي غالطت حسها فيه، وأصبحا رجلاً

وامرأة يجرّان خلفهما طيف سعادة زوجية وهما بعد في طريقهما إلى المنزل العائلي.

كان عز دستويفسكي قد اضطره إلى التعاقد مع بعض الصحف في سان بطرسبورج على موافاتها برواياته مقابل قليل من المال، فأرجأ كتابه الفصول الباقية من «**ذكريات بيت الأموات**» خشية أن يشوه العمل السريع طرفة يحلم بها منذ سنوات، وأصدر روايتين جديدتين هما «**حلم العم**» و«**قرية شيبانتشيكوفو**» فأخفق فيهما، وأحس هذا الإخفاق فكتب إلى أخيه: «شد ما يحزنني أن أقدم نفسي إلى الجمهور بهاتين القصتين. وإنه لمن المؤلم أن تحول الأقدار بين الكاتب وإبداع ما يريد، فيؤلف ما لا يمكن أن يسنح لخاطره من المواضيع لولا حاجته واضطرره. وهكذا قضي عليَّ أن ألفق القصص تلفيقاً لكي أحصل على المال، فما أشق هذا الأمر وأصعبه علي!».

كان الأدباء الروس قد درجوا مع الزمن فاستحدثوا في أدبهم جديد الأسلوب وجديد المعنى وجديد الغاية، وكان القراء قد تطوروا تطوراً سريعاً، ولم يبق ثمة تجاوب بينهم وبين ذلك المنفي العائش في العالم المهجور والمتشبث بميول بائدة وتقاليد انقلبت رأساً على عقب. فلما طلع عليهم بعد دهر من الزمن بهاتين الروايتين الهزيلتين لم يجدوا فيهما صدى قوياً للحاية، وقابلهما النقاد بالصمت والإهمال. وشعر بأنهم في ذلك على حق، وأنه إذا ظل بعيداً عن سان بطرسبورج فسيظل غريباً عن روح العصر، بعيداً من الحياة السائرة المتجددة، فثارت به الرغبة في العودة إلى العاصمة، ونازعته نفسه لأن يكون في قلب المعمعة. وكان قد مدح القيصر اسكندر الثاني بقصيدة ألقيت في حفل تتويجه، فكتب هذه المرة إلى الجنرال توتيليان رسالة أثارت العطف في قلبه، فما زال يدافع عن دوستويفسكي جاهداً حتى استصدر أمراً بإعفائه من الجندية،والسماح له بالإقامة في مدينة تفير تحت رقابة الحكومة.

ولم يكف في خلال ذلك عن الشكوى والتظلم: «ماتفتأ تكتب لي يا أخي أن غوتنشاروف حاز سبعة آلاف روبل مقابل إحدى رواياته، وأن تورغنييف

قبض أربعة آلاف. أنا أعترف أن تورغنييف يكتب خيراً مني إلى حد ما، ولكني أؤمل أن أضارعه في فنه يوماً، فلماذا أقبل على الرغم من بؤسي ألفاً من الروبلات بينما يعطى له أربعة آلاف هو الذي يملك ألفي نفس؟ وأن هذه الطريقة في الكتابة تؤدي إلى تشويه مؤلفاتي؟». وكان من حقه أن يشكو يتظلم، فهو في حاجة شديدة إلى المال، بل هو اليوم في أقصى حاجته إليه، بعد أن انقطع مورده من الجندية، وتراكمت الديون عليه لتلبية مطالب ماريا ديمتريفنا، فمده الناشر كوشيليف بألف روبل، ولكنها ما لبثت حتى ذابت كالثلج فكتب إلى أخيه: «أنقذني مرة أخرى».

ورحل إلى تفير أخيراً، وكان الظن بها أن تكون مدينة راقية، فإذا هي بالسجن أشبه وليس فيها من وسائل التسلية وأسباب المتعة حتى ولا مكتبة للمطالعة، فأظلمت الدنيا في عينيه وخيل له أن حياته تفقد أسمى معانيها، وأنه سيقضي سنيه كلها في هذه الأصقاع المهجورة، حاملاً في نفسه حنينه المذيب كما تحمل الثمرة في قلبها الدودة التي تقرضها.

وكانت ماريا ديمتريفنا قد أضواها البؤس وبرح بها السل، فلم تعد لتحتمل مصيبتها في زواجها العاثر، أو تجد بالقرب من زوجها أي هناء، وإن كل شيء فيه ليضجرها ويثير سخريتها حتى خلقه الرضي وقلبه السري وطيبته المثلى.

وتقول إيمه دستويفسكي: إن ديدور ميخائيلوفيتش شعر بأن ماريا ديمتريفنا تخونه مع المعلم فيرغونوت فراضى نفسه على الصبر. أما هو فليس في مذكراته أو رسائله ما يشعر بأنه اطلع من زوجته على ريبة، وإن كان قد عالج موضوع الغيرة غير مرة في أدبه. ومهما يكن من أمر فليس من ريب في أن حياتهما الزوجية لم تكن تطاق، وإن كان فيدور ميخائيلوفيتش قد احتمل نكبته بطول أناته ووداعة خلقه، ولم يدع وسيلة للترويح عن قلب زوجته والتخفيف من آلامها إلا توسل بها.

في هذا الجو المثقل باليأس والمرض والوحدة كتب دستويفسكي إلى القيصر رسالة ضارعة جاء فيها: «إن مصيري وصحتي وحياتي جميعاً في يدك،

فاسمح لي بالعودة إلى سان بطرسبورج لأستشفي من داء قاتل، وأطلق حريتي لأخدم أسرتي ووطني».

«ولتغفر جرأتي أيها العاهل العظيم وتتكرم بمنحي نعمة خاصة، فتأمر بقبول ابن زوجتي بول إيساييف البالغ من العمر اثني عشر عاماً في مدرسة سان بطرسبورج على نفقة الدولة، فتقر بذلك عين أمه التي تلقنه حبك والدعاء لأسرتك المجيدة».

«أنت كالشمس تضيء للأخيار والأشرار، فكن في عون يتيم يائس لا نصير له ولا رافد، ومريض تعس على استعداد لأن يضحي بنفسه في سبيلك».

«وإني لأجرؤ بما أحمل لك من خالص الإحترام وعظيم التفاني، على أن أؤكد لك بأنني أخلص رعاياك وأشدهم عرفاناً لنداك الغمر وفضلك الشامل».

وكان لهذه الرسالة أثرها الطيب في قلب القيصر فأجاب دستويفسكي إلى كلا الطلبين على أن يحاط في سان بطرسبورج برقابة دقيقة. وانطلق القطار به إلى العاصمة فبلغها في ليلة الميلاد من سنة ١٨٥٩ وتلقاه أصحابه بالهتاف والبشر:

ـ ها هو.. ها هو..

ـ لقد عاد أخيراً..

ـ إنه لم يتغير!..

أما هو، المنفي العائد إلى وطنه، فلم تفتر شفتاه إلا عن كلمة واحدة:

ـ عشرة أعوام.. عشرة أعوام!..

وفاضت في نفسه الذكريات والآمال والمخاوف..

عشرة أعوام قضاها في نضال مستمر وانظار محموم لكي يدرك هذه اللحظة ويطأ الأرض الحبيبة. وها هو قد عاد أخيراً، فماذا يخبىء له الغد؟

عشرة أعوام قضاها قاعداً والناس سائرون، فإذا مجتمع اليوم غير مجتمع

الأمس، وإذا الأحلام الثورية التي سجن من أجلها وقاسى في سبيلها ألوان العذاب، قد غدت عقائد راسخة يلهج بها رجل الشارع. فهل يكبو في هذا السباق الجاهد ويضيع في زحمة الأقدام، أم يشق لنفسه طريقاً يصعد به إلى مراقي المجد؟

لشد ما تطورت الحياة! لقد أراد القيصر الجديد أن يسير بالدولة في طريق الإصلاح، مفضلاً أن يتم إلغاء النظام الاقطاعي طوعاً بأيدي المنتفعين منه على أن يتحطم عنوة بأيدي المتظلمين والساخطين. فما كاد يجهر بهذا الرأي حتى اضطرب حبل الأمن وانشطرت الأمة إلى فئتين متخاصمتين تتنازعان الغلب وتأبيان على بعضهما قرار الراحة. فأما الأشراف فإنهم لا يتنازلون عن امتيازات ورثوها عن آبائهم فحسبوها حقوقاً مشروعة، وأما الشعب فكانت صيحته صيحة الأجيال التي غبرت العصور الطوال تحت نير الذل والعبودية. والقيصر بين هاتين القوتين في قلق مستمر وندم لا ينقضي، فقد أدرك أن الظمأ الذي أثاره في رعيته قد أحدث فيها هياجاً مخيف العقبى.

وفي هذا العالم القلق هبط دستويفسكي فجأة بحبه العظيم لروسيا ودينه الكبير للقيصر، وكأنه هبط من عالم آخر وعصر بعيد، فهل يحدث نفسه بالنكوص وأصحابه متقدمون فيسجل على نفسه الهزيمة في مجتمع يتمخض بأعظم الأحداث، أو يعود إلى النضال من أجل المبادىء التي طوحت به إلى سيبيريا وهو لم يدع وسيلة ولا زلفى إلا استخدمها لكي يثبت للقيصر ولاء وندامة يكفلان القيام من الزلة والإقالة من العثرة؟

لم يتردد دستويفسكي في تحية التقدم الاجتماعي وتطلع الجماهير إلى الحرية، ولكنه امتزج بتلك النهضة ولابسها ثم عاد منها برأي جديد يرضي ضميره ويدرأ عنه الشبهة.

لقد كان بين الثوريين التقدميين جماعة من النهيليست تتنادى إلى فوضوية رعناء لا تعتمد على واقع أو منطق ويسمى أصحابها «المستغربون»، وكان بين المحافظين الرجعيين أناس غلف القلوب يتعلقون بنظم عتيقة وتقاليد متحجرة

ويسمون «السلافيون»، فاعتقد أن كلا الفريقين مغال في مذهبه ومتطرف في دعوته: اعتنق الأولون المبادىء الغربية، وتشبث الآخرون بالتقاليد الموسكوبية، فإذا الفريقان دخيلان على البلاد بعيدان عن الروح الروسية الأصلية.

وهكذا وجد فيدور ميخائيلوفيتش سبيلاً يسلكه بين تلك الدروب المتشعبة، فهو ليس بالمحافظ ولا بالثائر، ولكنه محافظ روسي وثائر روسي. هو مصلح ينشد التقدم والتجدد ولكنه لا يقر وطنه على تبني النظم الأجنبية والجري على سننها، بل يريد منه ابتداع النظام المستوحى من بيئته الخاصة وكيانه المحض فهو أهدى له وأقوم.

أما هذا النظام فهو المسيحية.. المسيحية الصافية التي لم تمتد إليها يد الكنيسة. فدستويفسكي ينقم على الكنيسة طقوسها وقيودها، ويحب المسيح لأنه الصورة المثلى لما في الشعب من جمال وخير، كما يحب الشعب لأن في ضميره نفحة علوية من روح المسيح.

ويذهب سيغموند فرويد إلى أن هذا النهج الأخلاقي الذي تظاهرت الظروف على أن تسم دستويفسكي به، وهو نقطة الضعف في عبقرية باذخة قلّ أن تنجب العصور لها مثيلاً، لأنه وضع صاحبه في مصاف المصلحين الخياليين فعاش ومات ولم يبلغ من الحق قصداً ولم يرفع له مناراً، وكان ظهيراً للظالمين والقاسطين وضحاياهم بمرأى منه ومسمع.

ما كاد دستويفسكي يستقر في سان بطرسبورج حتى أصدر مع أخيه مجلة **«الزمان»** وهي صحيفة أسبوعية أثارت بنزعتها القومية نقمة المستغربين والسلافيين على السواء، ولكنها ما زالت تناضل في غمرة الخصومة والمعارضة حتى استقام لها الأمر ونالت في الانتشار ما ساعدها على إشراك طائفة من خيرة الأدباء وفي طليعتهم الروائي تورغنييف والفيلسوف ستراكوف.

كان ميشال يعنى بإدارة المجلة، أما فيدور ميخائيلوفيتش فقد عكف على تحريرها بأناة وصبر، فأنشأ طريف القصص، ولم يتردد في نشر «جرائم لاسونيير» و«مذكرات كازانوفا» لإغراء القراء على متابعة المجلة. وكان يحيي

ليليه بالمطالعة والإنتاج يبدأهما في الساعة الحادية عشرة من مساء ولا ينام إلا في الخامسة صباحاً، فنال هذا النظام المجهد من صحته وتوالت عليه نوبات الصرع في مراحل متقاربة حيناً ومتباعدة آناً، وقد وصف ستراكوف إحدى هذه النوبات بقوله:

«. . . ثم انقطع به الحديث، فتوقف بغتة كأنه يتذكر كلمات منسية يريد أن يعبر بها عن الخواطر المتزاحمة في ذهنه. وحدقت إليه بانتباه شديد، موقناً من أن لسانه سينطلق بفيض من رائع بلاغته، فإذا بشفتيه تنفرجان عن صوت غريب، مستطيل، مبهم، وإذا به يهوي على أرض الغرفة مختلجاً فاقد الرشد».

وكثيراً ما أصيب في أثناء سقوطه بالجراح حتى امتلأ وجهه بخطوط حمراء متعارضة، فإذا ما ثاب وعيه إليه، أحس بالإعياء، وشعر بالفراغ في رأسه، وغدا فريسة الملل والضجر. ولم يكن له من عزاء عن هذه الآلام المبرحة إلا الغبطة العميقة التي يحسها وهو في غمرة الصرع. لقد كان يشعر بالهدوء والطهر، ويستغرق في بهجة نورانية تجعل من الكون أنشودة فياضة «ولكن هذه الدقائق المشرقة ـ كما يقول في رواية **«الأبله»** ـ ليست إلا توطئة لتلك النشوة العظيمة التي تسبق النوبة الصرعية، وهي نشوة لا تفسر ولا تسبر. وأحبب بالمرض، إذا كان هذا العارض مرضاً، ما دمت أنعم في تلك اللحظة بشعور فريد لم يخالجني قط في عهد الصحة، شعور بالامتلاء والصفاء والفناء في صلاة حارة ترتفع إلى قدس الحياة ووحدتها». وما أكثر ما قال لأصحابه «إني لأرتفع في تلك اللحظات إلى سعادة يتعذر إدراكها في الزمن العادي، ولا يستطيع تخيلها إلا من ارتفع إليها. لكأني أتحد بالكون كله، وأرى إلى تناغمه في وحدة شاملة».

في تلك الأيام التي ترجحت بين أقسى الألم وأقصى البهجة، ألف دستويفسكي رواية **«مذلون ومهانون»** فانهال النقاد عليها بألوان الطعن والانتقاص، ولم يتردد أبولون غريغوريف نفسه وهو ناقد «الزمان» في الجهر بأن أكثر شخصيات الرواية ليست إلا دمى تتحرك، فاعتذر دستويفسكي بأنه كتبها

على عجل لتغذية المجلة الناشئة «على أن في الكتاب نزراً من الصفحات التي أفخر بها». . وإنه لعلى حق بأن يفخر بتلك الصفحات المشرقة، وإذا لم يكن في هذا الكتاب إلا شخصية نيلي لكفت دليلاً على موهبته الروائية الكبرى.

ثم تظهر **«ذكريات بيت الأموات»** وسرعان ما تمحو ذلك الأثر السيء وتنتزع الإعجاب انتزاعاً، فينبه اسم دستويفسكي وتستفيض شهرته ويجمع المختلفون بشأنه على تمجيد الرواية ومقارنة مؤلفها بدانتي صاحب **«الكوميديا الإلهية»** وإطراء الجو الرهيب الذي وفق في وصفه توفيقاً رائعاً لم يسبق إليه. وشد ما ترددت لجنة المراقبة قبل أن تسمح بنشر هذا الكتاب المخيف، وهي لم تأذن بذلك إلا بعد حذف المقاطع المثيرة منه والتأكيد على أن حوادثه تدور في عهد غابر.

ولكن وقائع الأيام جاءت تثبت أن ذلك العهد لم يزل قوي الدعائم فادح الوطأة. وأن سيل النقمة قد تعاظم حتى غمر روسيا بأجمعها فالكتاب ينشدون الإصلاح، والأقنان يطالبون بإلغاء الرق، والطلاب يتنادون إلى الثورة، وهيرزن يكتب من لندن: «لقد عرف الشعب أنه لم يعط من الحرية إلا اسمها، وإني لأسمع زئيره العالي، وأرى إلى حراب الترمد تبدو من أقاصي الوطن العظيم، وما زمجرة الشعب الأولى إلا زمجرة الموجة تنطوي على السكون دهراً ثم تجتاح الشاطىء في قوة الإعصار».

ومن الحق أن نقول: إن تلك الزمجرة التي أشار إليها هيرزن والتي أوحت لدستويفسكي فيما بعد برواية **«المسكونون»** إنما كانت زمجرة طفولية لم يتوافر لها سداد الرأي وحسن الوعي ونضج الفكرة، وماذا يرجى من حركة يتزعمها نفر من الفوضويين؟

لقد استعرت الفتنة في بداية سنة ١٨٦٢، وكانت فتنة عمياء أحرق أصحابها أحياء عديدة من المدينة، وهبت السلطة لكبح جماحها وإخماد ضرامها فأغلقت جامعة سان بطرسبورج، واعتقلت رهطاً كبيراً من الطلاب ثم ساقتهم إلى المنفى، فواكبهم جمهور كبير إلى نظارة المدينة وانهالت عليهم الهدايا من

جميع الأوساط والجمعيات وكان لمجلة «الزمان» نصيبها في هذه الظاهرة فقدمت للمنفيين هدية ثمينة.

تلك سنة عاصفة هائجة أرهقت دستويفسكي بأحداثها وأثقلت قلبه بآلامها، فنصحه الأطباء بالرحيل إلى أوروبا انتجاعاً للاستشفاء والراحة، ولم يكن لديه من المال ما يكفيه لاصطحاب ماريا ديمتريفنا فرحل إلى باريس بمفرده، وبلغها في منتصف حزيران (يونيو) سنة ١٨٦٢. وكانت باريس يومئذ تمخض بحركة أدبية عظيمة يتزعمها هيغو وفلوبير وغوتيه، ويشرف عليها رينان وتين وسانت بوف، ولكن دستويفسكي لم يمكث فيها سوى عشرة أيام ملؤها الوحدة والوحشة، ثم برحها إلى لندن وكتب إلى ستاركوف: «إن باريس مدينة محزنة كئيبة ولولا ما فيها من الآثار العظيمة لقضي علي ضجراً».

والتقى في لندن هيرزن زعيم النهيليست فقام بينهما ود وثيق لم يصدعه تباين آرائهما السياسية. وراقت لندن لدستويفسكي في صحبة صديقه الجديد. ولكنه لم يلبث أن انتقل منها إلى جنيف لملاقاة ستراكوف، وبعد أن طافا معاً، وفي سأم عظيم، بعض المدن السويسرية والإيطالية، اعتزما أن يفترقا فرحل ستاركوف إلى باريس وعاد دستويفسكي إلى روسيا.

وما كاد يستقر في سان بطرسبورج حتى نشر في مجلة «الزمان» مقالاً بعنوان **«ملاحظات الشتاء على رحلة الصيف»** أودعه رأيه في أوربا، فسخر من تلك القارة وهاجمها في نظمها والاجتماعية وأنكر صلاحية تلك النظم للحياة.

لقد كان يخيف بعض مفكري روسيا من هجمات الحضارة الغربية أن يفنى فيها مثل المحب الشرقي، لأن الأفراد الذين يشتركون في إدارة آلة الحضارة الأوربية سيصبحون عبيداً للشيطان الذي خلقوه، وبدلاً من أن يتمتعوا بحرية الغرب المزعومة كانت شخصياتهم تتحطم في تشييد صروح الرخاء المادي، وتتجه عقولهم نحو جمع المال. فكان الغرب الذي يفاخر بتحرره من عبادة أصنام الجهل العتيقة قد أقام عبادة وثنية جديدة. وكان دستويفسكي يتزعم هذا الرأي، فكاشف أوروبا بالخطر الذي تروغ من مواجهته، وأنذرها بانهيار

حضارتها. ولكن أوروبا لم تلبث أن انتصبت في تلك الأيام من عام ١٨٦٣ في وجه روسيا انتصاراً لبولونيا المطالبة بحريتها. وكان على مجلة «الزمان» أن تبدي رأيها في موقف بولونيا المناضلة ضد الاستعمار الروسي، فأبداه ستراكوف في غموض محرج أفضى إلى منع الصحيفة عن الصدور. فاستحوذ اليأس على دستويفسكي لهذه الصدمة تمزق المجلة الغالية وقد شارفت مراقي النجاح، واعتزم العودة إلى أوروبا، ولكنه لم يشأ السفر هذه المرة بمفرده فهو في حاجة إلى صدر حادب يسكن إليه وينسى في حنوه ما يرهقه من شقاء وتعب.

كانت حياة دستويفسكي تضطرب منذ عاد من تفير، في جو مضن من دائب العمل وعاصف القلق، وكان يأمل أن يجد في جوار زوجه بعض الراحة، لكن السل كان قد برح بماريا ديمتريفنا فغار خداها وذوت شفتاها وأظلمت عيناها، وحملها اليأس على غاية القسوة وأقصى العقوق، فازدادت غلواً في مقته وعتواً في النفور منه. «أنا متزوج ومريض، وأحترف الأدب، وصاحب مجلة...» هكذا كتب إلى أرملة الناقد بيلنسكي يبثها شجنه وكأنه يجد في كل واحد من هذه الأمور مصيبة لا تطاق بمفردها فكيف بها مجتمعة.

كان يشعر بالحنين إلى لون جديد من الحياة يلتمسه بعيداً عن منزله الكئيب، فلا يشهد احتضار زوجته البطيء، ولا يسمع عتابها له ولومها إياه. وكان يحس بالظمأ المجهد إلى حب نقي يكون بعثاً لقلبه وجلاء لنفسه، حب خصب يمور بالحياة ويتوهج بالشباب ويفيض بالبهجة. فلما تعرف إلى الممثلة شوبير راعه جمالها، وشغفه مرحها، وخيل له أنه أدرك الحلم الريان الذي عقد قلبه عليه وتسامى أمله إليه، فإذا بمرارة اليأس تعاوده، وبلوعة الحب الخائب تراجعه من جديد.

لم تستجب شوبير لعاطفته كما تمنى، وإنما جعلت منه وسيطاً بينها وزوجها وشفيعاً لها عنده، فارتضى هذا النصيب من السعادة، ومثل دوره في شيء غير قليل من الغبطة، ومضى يخادعها ويخادع نفسه معها في حقيقة العاطفة التي تحتدم في قلبه نحو تلك الصبية اللعوب التي يسميها حمامته

الصغيرة ويقبل باحترام قدمها اللطيفة العنيدة!

بيد أن هذه الصلة المضنية من لاعج الهوى ويائس الحب لم تلبث حتى تصدعت حين تعرف إلى بولين سوسلوفا وهي الفتاة البارعة التي أراد أن يصطحبها في الهموم ويستروح منها عبق الحب والحياة.

ولكن تلك قصة أخرى!

جون ميلتون:

البطل الجريح

ولادتـــه:

في معترك النضال الباسل الذي خاضه الشعب الإنكليزي في النصف الأول من القرن السابع عشر دفاعاً عن حريته وحقه في الحياة، وفي غمرة الهول الذي ساد إنكلترا بعد القضاء على الجمهورية القصيرة الأمد التي أنشأها البطل العظيم أوليفر كرومويل، ظهر على ضفاف التامير أديب عبقري امتاز بفنه العالمي الفذ كما امتاز بوطنيته الصادقة وصلابته في الدفاع عن مبادئه السياسية وعقائده الاجتماعية، هو الشاعر جون ميلتون.

ولد ميلتون سنة 1608 وتلقى علومه في جامعة كمبريدج، ومال إلى نظم الشعر منذ حداثة سنه، وتجلت موهبته الأدبية في أثناء رحلة قام بها إلى إيطاليا وتعرّف فيها بغاليله ونعم بمجلس مانسو الشيخ الذي كان صديقاً حميماً للشاعر الإيطالي تاس، فروى له ذكرياته عنه وتلا عليه مقاطع من قصائده ولا سيما ملحمته الشهيرة «إنقاذ القدس».

لقد أرهف هذا البلد الجميل شعور الشاعر الشاب وأيقظ إلهامه، بطبيعته الرائعة وذكرياته الغنية، وآثار أدبائه الأفذاذ، وأثار عاطفته الزاخرة بحب عميق كتب له الإخفاق فيه، فأنشأ ينظم القصائد الغنائية الرقيقة معبراً فيها عن انطباعاته ومعرباً عن آلام قلبه العميد.

وبعد أن تعلم الإيطالية وطالع روائع الأدب الإيطالي، عاد إلى وطنه وأخذ يدرس اللغتين السريانية والعبرية، وينظم القصائد الشائقة التي تتضوع بأعراف قلبه الكبير وتفيض الشعور العميق الحي.

وكان يتابع في خلال ذلك مجرى الحياة السياسية في وطنه، ناظراً بعطف إلى نهضة الطبقات الشعبية التي أخذت تقاوم مظالم الطبقة الحاكمة وتحاول أن تسترد منها حقها السليب مطالباً بتأمين الحرية الفكرية والدينية لجميع المواطنين.

وحين بلغ جون سن الثالثة والثلاثين تزوج ابنة ريشار بوفيل، فما كاد ينقضي على زواجه شهر واحد حتى دب النزاع بينه وبين زوجته فانطلقت هذه إلى بيت أبيها لتعتصم فيه، ونظم ميلتون قصيدة هجائية انتقد فيها نظام الزواج السائد الذي يحظر الطلاق حتى بين زوجين لم تعد تجمعهما رابطة ما. غير أن الزوجة الهاربة ما لبثت أن عادت إلى منزل الشاعر لتعيش في كنفه وتجعل من حياته العائلية جحيماً لا يطاق.

وعندما أراد الملك شارل الأول قمع القسط الضئيل من الحرية الذي استطاع الشعب انتزاعه في ظل سلفه هنري الثامن، غضب ميلتون ونظم قصيدة بعنوان «**وضع الملوك الشرعي**» قال فيها: إن الملك الفاسد يجب أن يعاقب على مفاسده، ومن حق الشعب أن يثور عليه ويخلعه.

ولم يقتصر انتصاره لنهضة الحرية في وطنه على هذه القصيدة الجريئة، بل تعداه إلى قصائد ورسائل كثيرة كان لها أثرها الكبير في إذكاء الشعور بالحرية والاستماتة في سبيلها. فما كادت الثورة التي أعلنها الشعب الناقم بقيادة أوليفر كرومويل، تنتهي بخلع شارل الأول، وتولي القائد الكبير رئاسة الجمهورية التي أنشأها حتى جعله كرومويل أميناً له، فكان من رجال العهد الجمهوري البارزين ومن أبطاله الميامين، وبلغ من تمسكه بعقائده أنه ما كاد يلمس في كرومويل رغبة الاستئثار بالحكم، حتى تخلى عنه. وكان بصره يضعف شيئاً فشيئاً، فتذرع بهذه الحجة للاعتزال في منزله بالريف.

ثم مات كرومويل فأشفق ميلتون على البناء الذي أنشأه القائد الثائر أن يتهدم، وعلى الجهد الذي بذله الشعب الإنكليزي أن يتبدد، والدم الذي سفكه أن يضيع. وطفق يرسل صيحات حارة محاولاً إيقاف الردة التي كانت توشك أن تعود بوطنه إلى النظام الملكي. ولكن عبثاً كان يحاول، فإن شارل الثاني ما عتم

أن تولى العرش فتنفس الملكيون الصعداء وأخذوا ينتقمون من خصومهم بوحشية، حتى إنهم نبشوا قبر كروमويل وأخرجوا هيكله العظمي وصلبوه ثلاثة أيام كاملة.

أما ميلتون فقد انتزع من منزله وألقي في غيابة السجن، غير أن شاعراً من أنصار الملكية يدعى دافنان كان يحب ميلتون ويحفظ له جميلاً كان قد صنعه معه في العهد بالقديم، فعمل على إنقاذه من المشنقة التي كانت تنتظره، واستطاع إطلاق سراحه. فغادر الشاعر الكبير السجن إلى منزله ليعتزل فيه هذه المرة عزلة تامة.

وألقى النسيان ستاره المظلم على جون ميلتون، فعاش في صمت وعزلة وفقر مدقع وعمل متواصل أنجز به معجماً لاتينياً، وتاريخاً لإنكلترا قبل الفتح النورماندي، وكتاباً في المنطق وضعه على أساس مبادىء مالارمه.

وفي خلال قيامه بهذه الأعمال المرهقة كانت الأعوام تمر.

لقد كان الشاعر الذي رأى بعينيه انهيار وطنه ومبادئه وثروته، يعيش في غرفة بائسة مجهولة اختارها فيما بعد مسكناً له لشدة إعجابه بالأديب العظيم، وقد وصفها الدكتور فريغت بقوله: يصعد إليها المرء على سلم عليه طبقة من العشب تخنق وقع الأقدام وتؤمن السكينة، لهذا الكهل في تأملاته التي لم يعد لديه من سعادة غيرها، لأن جميع أصدقائه قد ماتوا على المشنقة أو في المنفى.

وكأن تينك العينين البعيدتي الغور لم تعد تخالجهما رغبة في رؤية هذا العالم، فأطفىء بصرهما وأظلمتا إلى الأبد.

لقد احتجبت عن عينيه الشاعرتين جميع الأنوار التي يهتدي بها الإنسان ويلتمس منها الدفء والحياة: دور الشمس، ونور المجد، ونور العقيدة والأمل بالغد. ولكن هذه الأنوار ظلت تسطع في قلبه وتلهمه أنبل الشعر وأكثره توهجاً بالحياة والدفء إذ في غمرة الألم والبؤس، كان جون ميلتون ينظم قصيدته الكبرى الخالدة **«الفردوس المفقود»**.

وتعرض الشاعر على الرغم من عزلته، إلى حملة عنيفة من خصومه حتى أصبح في عيون الكثيرين من مواطنيه رمزاً للخيانة فهجره الجميع ولم يكن يزوره غير نفر قليل ممن عرفوه فأحبوه وقدّسوه.

وسادت إنكلترا يومذاك حقبة رهيبة من الظلم والإرهاب. وانغمس الملك شارل الثاني في الترف والمجون واللامبلاة، ومن وراء الملك كانت المحظيات الفاجرات اللواتي يتدخلن في شؤون الدولة، وكان الدوق دي يورك الذي خلف شارل الثاني في الحكم باسم جاك الثاني.

وكان الدوق دي يورك ينطوي على حقد متقد تحت مظهر كاذب من الأناة والحلم. وقد بدا له يوماً أن يزور الشاعر جون ميلتون، فارتقى درجات ذلك السلم ثتب عليه العشب، واقتحم على الشاعر عزلته، فوجده كما وصفه شاتوبريان والدكتور فريغت، مرتدياً ثوباً أسود، ومستوياً على مقعد ذي ذراعين، عاري الرأس، ذا جبهة عريضة لم تحفرها التجاعيد، وشعره الفضي مسترسل على كتفيه، وفي وجهه الأبيض الجليل عينان سوداوان لا تزالان تلمعان ولكنهما لم تريا شيئاً.

لقد كان اجتماعاً مثيراً بين عدوين لدودين أحدهما في أوج مجده وانتصاره والآخر في حضيض الشقاء. شاب في ريعان الشباب ينتظر الملك والسلطان وشيخ مشوه قد هدمته الحياة وأخذت تدفع به نحو القبر. وريث عرش بريطانيا وسليل أسرتها المالكة وشاعر الثورة التي حطمت الملكية وقطعت رأس ملك عظيم الشأن كاثوليكي يزعم أنه حامي الكثلكة في إنكلترا ومفكر انتصر للبروتستانتية ودافع عن حرية الفكر..

وابتدر الدوق خصمه بقوله:

ـ هل تدري من يزور كوخك أيها العجوز؟

فأجاب الشاعر بهدوء: ـ تحدث فإني مصغ إليك..

فقال جاك باستعلاء:

ـ يال له من كوخ حقير لا يرى غير شعاع ضئيل من نور الشمس، ولكن عينيك لا تريان حتى هذا الشعاع الضئيل. إن من حدثني عنك لم يخدعني، ولعمري إنه لقصاص عادل أنزله الله بك: الشيخوخة، والبؤس، والعمى، واحتقار الناس.. إنه قصاص خليق بك. فهو احتصار دائم في انتظار...

وثب الشيخ من مقعده وصاح:

ـ من أنت؟ ولماذا تخاطبني بهذه اللهجة؟

ـ لقد كانت من ضحاياك وجئت اليوم لأقاضيك.

فقال الشاعر برباطة جأش:

ـ إذن فقد يتاح لي اليوم أن ينتهي عذابي وألحق بأصدقائي النبلاء..

ـ بل بشركائك الأخسّاء..

ـ ولكن من أنت أيها الرجل؟ وكيف تسمح لنفسك بإهانة شيخ مشرف على الموت؟

ـ ألم تعرف بعد؟ ألم تحزر من أنا؟

ـ إنك من أتباع البابا ولا شك.

ـ بل أكثر من ذلك. أنا أخو ضحيتك.

ـ شارل الثاني؟

ـ الدوق دي يورك.

ـ حسناً. فليستمتع الدوق دي يورك بلذة الانتقام، ولكني لا أعتقد بأن هذا المشهد يشبع بنهمه إذا لم يسفك الدم فيه.

ـ يا لك من عجوز حقير. إني أشاهد فيك برهاناً على عدل الرب، فقد لعنك الله واحتقرك عباده. وما أنت إلا شاعر لا تقابل قصائده إلا بالإعراض والإهمال، ذو رأس فارغ، وخيال مجنون. إنك مضلل كذاب، وبروتستانتي بلا

فضيلة. وقد عاقبك الله لأنك أهنت كنيسته الرومانية ورفعت يدك على الرجل الذي اختاره ليكون ملكاً عليك، ولكن عقابك لم ينته بعد.

- إن الدوق دي يورك ينتصر اليوم، ولكنه كريم كطاغية، فما أظلم المصير الذي ينتظر وطني الجميل عندما تتولى الحكم وكل ما أرجوه أن لا ينسى جاك الثاني أن ميلتون قد حارب الأنظمة التي كانت تهين الله، وأن الملك الذي قطع رأسه إنما عوقب لأنه تجاهل واجباته واستبد بحقوق الناس.

- إلى الملتقى أيها المتمرد العجوز والثائر العنيد.

فأجاب ميلتون بهدوء عظيم:

- إلى الملتقى.

ومضى جاك فقال لأخيه شارل الثاني:

- لقد أبقيت على جون ميلتون. ولو كنت مكانك لقضيت عليه.

فقال الملك بما عرف عنه من عدم المبالاة:

- يكفيه ما يعاني من هموم الشيخوخة والفقر والعمى والاحتقار.

ثم أرسل شارل الثاني إلى الشاعر العظيم صدقة قدرها عشر ليرات مكافأة له على قصيدته «**الفردوس المفقود**».

وفي هذه الملحمة التي تصور جمال الفردوس وهول الجحيم، بروعة نادرة المثال، ما هو أعظم من الجحيم والفردوس.. هنالك قلب جون ميلتون الذي يبدو من خلالها ممزقاً دامياً، ولكنه مع ذلك فخور وصامد. إن ميلتون لا يجدف ولا يلعن أو يشتم، بل ينظر إلى جرحه ضاحكاً مثلما ينظر الأبطال إلى جراحهم التي تنزف منها الدماء.

«فالعذاب من أجل الحقيقة،

وفي سبيل الحرية،

هو أعظم انتصار».

وكان لهذا القلب عزاء، في ربة الشعر التي كانت تزوره في وحدته وتناجيه في ليله المستديم. وكلما كانت الخمور تسيل بسخاء في قصور الأمراء الذين كانوا ينتقمون بمتارفهم للساعات التي قضوها في السجون والمنافي يوم انتصر الشعب، ولكما كانت الدماء تبذل زكية على مذبح الحرية، كان ميلتون يتقد غضباً ويرتعش ألماً، ويرسل من قلبه الشاعر تنهدات مكبوتة تدل على ألمه الدفين كما يترك الطير الجريح في طريقه بقعاً من الدم.

إن هذا القلب المليء بالشجاعة والقوة، كان يريد أن يغني حتى في ألمه، لا أن يبكي وينتحب. ولكنه لم يكن ليستطيع إمساك تلك التنهدات الخافتة ، تلك البقع الصغيرة من الدم.

ووضع الشاعر مأساة «**شمشون**» وملحمة أخرى بعنوان «**الفردوس الذي وجد بعد الضياع**».

وبعد حياة حافلة بالشقاء والعذاب، توفي سنة ١٦٧٤م وهو في سن السادسة والستين، من دون أن يسمع كلمة ثناء على شعره الفريد الذي تعده إنكلترا من مفاخرها الباقية على الدهور.



إدغار ألن بو

شاعر الرعب

تذكرت إنكلترا إخيراً السير أرثر كونان دويل بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاته، فأعادت نشر بعض مؤلفاته وأخرجت بعض رواياته في مسلسلات تلفزيونية، وكونان دويل هو مبدع شخصية شرلوك هولمز، التحري العام الذي برع في اكتشاف الجرائم الغامضة، وقد روى كونان دويل مغامراته في عدد كبير من القصص الشعبية.

وقد فاقت شهرة هولمز شهرة كونا دويل، حتى إن هذا عندما ضجر من كثرة ما كتب من القصص قرر التوقف عن متابعتها، وجعل بطله يقضي نحبه في إحدى مغامراته مع المجرمين، فإذا بقرائه يحزنون ويغضبون ويكتبون إليه من سائر أنحاء بريطانيا مناشدين إياه إعادته إلى الحياة، وأذعن الكاتب لإرادة قرائه فكتب سلسلة جديدة من القصص استهلها بأن شرلوك هولمز لم يمت حقاً وإنما أوهم خصومه بأنه قضى نحبه ليكون أكثر حرية في رصد تحركاتهم وكشف جرائمهم.

وكان أرثر كونان دويل قد تأثر في أول نشأته بالأديب الأميركي إدغار ألن بو، وحاول أن يقتفي أثره في سبر نوازع النفس البشرية في أشد حالاتها تعقداً وتوتراً وغموضاً، وقد اقتبس شخصية شرلوك هولمز، من شخصية المتر دوبان أحد أبطال إدغار بو، ثم تغلبت عليه رغبة الكسب السريع فاقتصر إنتاجه على الروايات الشعبية التي لا تخلو من الطرافة والمتعة.

لقد كان كونان دويل يشوقنا ويسلينا أما إدغار بو فهو يهزنا ويدهشنا. ومن أجل هذا نرانا في ذكرى كونان دويل نؤثر الحديث عن معلمه الذي لم يستطع اللحاق به والارتفاع إلى مستواه الأدبي الرفيع.

عندما ترجم بودلير إلى الفرنسية طائفة من أقاصيص إدغار ألن بو ونشرها بعنوان: «**حكايات خارقة**»، كتب أحد النقاد: «شاعر ملعون يترجم شاعراً ملعوناً». ترى هل كان ذلك هجاء أو مديحاً؟

الواقع أنه لا يمكن فهم أدب بو إلا من خلال فهمنا لحالات الشعور بالذنب الذي يسيطر على الكثيرين من شخصيات قصصه، وإدراكنا للانحرافات النفسية التي عرضها بأسلوب فني أخاذ من خلال معالجته لمشكلة الشر في المجتمع البشري. فهل كان إدغار بو نفسه أحد هؤلاء المرضى الذين وصفهم ببراعة وصورهم لنا في مواقف مؤثرة أو كان جميع هؤلاء المرضى في وقت واحد؟!

ولادتـه:

لقد تمثلت في حياة هذا الأديب كل عناصر المأساة. فقد ولد سنة ١٨٠٩ في بوسطن من أبوين يحترفان التمثيل مع فرقة متجولة، وكان أبوه دافيد بو سكيراً عابثاً هجر أسرته بعد ولادة إدغار ولم يعرف مصيره بعد ذلك، ولم يكد إدغار يبلغ الثانية من عمره حتى توفيت أمه أليزابيت أرنولد بمرض السل وكانت مع فرقتها في ريشموند. فتبنت الطفل اليتيم الهزيل أسرة جون ألن مزارع التبغ في رشموند، وتبنت أخويه وليام وروزالي عائلتان أخريان. وقد هيأت له أسرة ألن التي أخذ عنها ثاني أسمائه، أحسن الظروف لتلقي العلم، واصطحبته معها إلى بريطانيا للاقامة فيها بضع سنوات، التحق بمدرسة مانور في ستوك نيو نيغتون بضواحي لندن وقد أوحت له أيام الدراسة فيها فيما بعد قصته «**ويليام ويلسون**».

ثم عادت الأسرة إلى ريشموند، واشتد الخلاف بين جون ألن وزوجته،

وانعكس هذا الخلاف على علاقة جون بإدغار، فقد كانت الزوجة شديدة العطف على الفتى والعناية به، ولعل هذا العطف الشديد كان أحد العوامل التي دفعت جون إلى التبرم به والقسوة عليه.

ولفت إدغار انتباه أساتذته وزملائه في مدرسة المعلم جوزيف كلارك الثانوية، بنبوغه المبكر وذكائه الحاد، وإتقانه وهو ابن السابعة عشرة اللغات اللاتينية والفرنسية واليونانية والإسبانية، وتضلعه في الأدب الكلاسيكي، وتخللت حياته الدراسية بعض الغراميات الصغيرة فأحب أول ما أحب والدة زميل له في المدرسة، ثم شغف بسارة ألميرا وهي فتاة في الخامسة عشرة من عمرها وأراد الزواج منها ولكن أباها اعترضه وهدده فقطع سيل رسائله الغرامية إليها.

ولم يشك أحد حين انتقل إدغار إلى جامعة فيرجينيا في شارلو تسفيل في المستقبل اللامع الذي ينتظره، ولكن أباه بالتبني كان يضمن عليه بما يحتاج إليه من مال، فأنشأ يقامر مع زملائه وغير زملائه، وتراكمت عليه من جراء ذلك الديون، فتوقف جون ألن عن تسديد الأقساط المدرسية، واضطر إدغار إلى الإنفصال عن الجامعة بعد سنة واحدة من دراسته فيها، وعاد إلى ريشموند ليجد أن سارة ألميرا قد تزوجت، وليعمل مضطراً في مكتب والده، فما لبث حتى ضاق بذلك، وغادر ريشموند إلى بوسطن وحيداً معدماً، على الرغم من محبته الشديدة للسيدة التي تبنته وشعوره نحوها بالامتنان وعرفان الجميل.

واستطاع إدغار في بوسطن أن يقنع أحد أصحاب المطابع بنشر مجموعة شعرية له، بعنوان: «**تيمورلنك وقصائد أخرى**» وكان الشاعر الشاب في الثامنة عشرة من عمره، فلم تلاق قصائده النجاح الذي كان ينتظره، وكانت نيران الحرب مستعرة بين الشمال والجنوب، فتطوع إدغار في الجيش الاتحادي الذي كان يقاتل من أجل تحرير العبيد وتوحيد الولايات الأميركية، تحت زعامة إبراهيم لنكولن، ولكن إدغار لم يتطوع في الجيش لخدمة القضية التي يحارب من أجلها، بقدر ما كان يرغب في إنقاذ نفسه من الجوع.

ولما توفيت فرانس ألن أمه بالتبني، تحددت العلاقة حول سرير المرأة المحتضرة بين جون ألن وإدغار بو، فعمل على إخراجه من الجيش وألحقه سنة ١٨٣٠ بالمدرسة العسكرية في وست بوينت، إلا أنه ما لبث حتى طرد منها سنة ١٨٣١ لعدم تقيده بأنظمتها ولإدمانه على الخمر والميسر، وأدى ذلك إلى القطيعة التامة بينه وبين جون ألن ولا سيما بعد أن تزوج امرأة ثانية فلما أشرف على الموت جاء إدغار يزوره كمن يطلب المغفرة عن أخطائه، فأمر الخدم بطرده من البيت ولم يذكره في وصيته.

والتجأ الشاب إلى عمته ماري كليم في بوسطن، وهو غارق في الفقر والديون، فأحاطته بعطفها وتشجيعها وصبرها، وكانت تطوف على إدارات الصحف تعرض عليها مقالاته وقصصه، قائلة إنها نتاج عبقرية لم تعرف أميركا مثيلاً لها، ولم تكن تتورع عن التسول لإنقاذه من الجوع. وبعد حياة بائسة استمرت أربع سنوات، أعلنت إحدى صحف بلتيمور عن جائزة قدرها خمسون دولاراً لأحسن قصة، فقدم لها إدغار مجموعة من القصص القصيرة اختار المحكمون واحدة منها وهي «**مخطوطة وجدت في قنينة**» ومنحوها الجائزة الأولى كما أوصوا بنشر المجموعة كلها «لأنها تمتاز بخيال فطري قوي وشاعري، كما تمتاز بأسلوب قوي وتفكير خصب مبتكر وعلم متنوع عجيب».

وتتحدث قصة «**مخطوطة وجدت في قنينة**» عن مثقف كثير التجوال غريب الأطوار مولع بتقصي الحقائق وتفسيرها تفسيراً علمياً، أبحر ذات يوم من جاوة إلى جزر الأرخبيل على ظهر سفينة جميلة متينة، فهبت عاصفة شديدة غمرتها بالمياه وقضت على جميع من فيها باستثناء كاتب القصة ورجل سويدي مسن. واستمرت العاصفة ستة أيام وأخذت تدفع بالسفينة إلى قعر هوة مخيفة، وإذا به يشاهد هناك سفينة ضخمة الحجم قد رفعتها الأعاصير إلى علو شاهق ثم هوت بها إلى قعر اليم، وبينما كانت السفينة الصغيرة تغوص في الأعماق صدمتها السفينة الكبرى بعنف وقذفه الاصطدام إلى ظهرها، وكانت دهشته عظيمة لأن كل ما في هذه السفينة الصغيرة كان غريباً وبعيداً عن المألوف، فكأنها من عالم

الذكريات والعصور الغابرة، حتى البحارة والربان الذين كانوا يمرون به فلا يلحظون وجوده ولا يعيرونه أدنى التفاتة، وكانوا كلهم طاعنين في السن مقوسي الظهور ترتعش ركبهم وتشع عيونهم ببريق السنين وتتطاير شعورهم البيضاء في الهواء، يدورون كالأشباح ويتكلمون لغة أجنبية لم يفهم منها شيئاً. ولما دخل مقصورة الربان المليئة بأدوات علمية غريبة الأشكال وبخرائط قديمة العهد، خطر له أن يدوّن مشاهداته ويضعها في قنينة لعل أحداً يعثر عليها. وكانت السفينة تندفع نحو الجنوب في ظلام دامس، وشاهد كتلاً من الجليد تنصب في الماء الكئيب وكأنها أسوار الكون، فأدرك أنها تتجه نحو القطب الجنوبي. وبينما كانت جبال الجليد تتعالى من كل صوب، والسفينة تندفع في دوار ضار يشدها إلى الأعماق، كان البحارة يسيرون على ظهرها بخطى قلقة مرتعشة لكن ملامحهم تعرب عن الأمل الشديد أكثر ما تعرب عن اليأس القاتل.

وكان الروائي جون كندي من أعضاء لجنة التحكيم، فأخذ بيده وأوجد له عملاً في مجلة الرسالة الأدبية الجنوبية في رشموند، فتحسن وضعه واستقرت حياته وتزوج سنة ١٨٣٦ فيرجيني ابنة عمته وهي في الرابعة عشرة من عمرها، وقد اضطر إلى الحصول على شهادة ميلاد مزورة ليتمكن من الاقتران بها. وكانت فيرجيني زهرة يانعة بقوامها الممشوق وشعرها الفاحم الجميل وذلك المزيج من البياض والحمرة الذي يطبع وجوه مرضى السل، وقد كتب فيها عدداً من قصائده وجاء في إحداها:

كنت طفلاً وكانت طفلة مثلي

نعيش في مملكة متاخمة للبحر

وأحب كل منا الآخر بما هو أقوى من الحب

أنا وهي، في مأمن من الرياح العاتية

وتعتبر هذه المرحلة أكثر المراحل خصباً وإنتاجاً في حياته وقد رحل في سنة ١٨٣٨ إلى نيويورك مع زوجته وعمته فعمل في مجلة «نيويورك كواتزلي»

ثم انتقل إلى «مجلة برتون» ونشر في مجلة «الجنتلمان» قصة «**انهيار منزل أوشر**» التي عززت شهرته ورفعت مكانته.

وفي هذه القصة يروي كاتبها أنه بينما كان يتجول على جواده في أحد أيام الخريف عبر الريف النائي، وجد نفسه أمام منزل أسرة أوشر بجدارنه الشابة ونوافذه الصغيرة وصوف الحشائش المحيطة به وجذوع الأشجار الهرمة، فساوره شعور بالانقباض والكآبة وخالجته خواطر مرعبة، من دون أن يدري لذلك سبباً، وازداد قلقه ورهبته حين قاد جواده إلى منحدر يؤدي إلى بحيرة آسنة تقع على حافة المنزل وتعكس صورة جدرانه وأعشابه وجذوعه. وكان قد تلقى رسالة من صديقه الحميم رودريك أوشر صاحب المنزل يدعوه فيها لزيارته. وكان رودريك أوشر سليل أسرة كريمة اشتهرت بخدمة العلم والفن. وقد جاء في رسالته أنه يعاني مرضاً حاداً يمس جهازه العقلي ولح عليه في تلبية دعوته. وبهذا الشعور القلق المبهم دخل إلى المنزل وهو يتأمله ويصف دقائقه، واحتمع بصديقه القديم فراعه منظره حتى أوشك على الشك في أن يكون هو نفسه رفيق حداثته ولم يصدق أن الإنسان يمكن أن يتغير إلى هذا الحد في مرحلة من الزمن، فقد كانت ملامحه شبيهة بجثث الموتى، وتولاه الرعب من شحوبه المفرط والبريق العجيب في عينيه، وزاد ذلك من شعور الهلع الذي استولى عليه منذ وصوله إلى المنزل. وحدثه مضيفه عما يعانيه فقال إنه داء عائلي ملازم لا علاج عله تظهر عوارضه في حالات من الانفعالات العصبية غير الطبيعية فهو أسير أنواع شاذة من الرعب، وهو في كفاح دائم معها، وقد غدا على يقين بأنه لن يمضي بعض الزمن إلا ويتخلى عن عقله وحياته، وقال أن شقيقته الليدي مادلين تعاني مرضاً مزمناً احتار الطبيب في تعليله يدفع بها إلى الفناء شيئاً فشيئاً، وأن موتها سيتركه وحيداً هو اليائس الضعيف وآخر الأحياء من أسرة أوشر العريقة. ويعود الكاتب إلى وصف المنزل بقناطره القوطية وغرفه الكبيرة وسقوفه العالية ونوافذه المستطيلة الضيقة المخروطية الشكل، ويحاول أن يربط بين المنزل وقلق صديقه الدائم وتلاشي شخصية شقيقته المستمر، ويصف اللوحات الطيفية الغامضة التي كان يرسمها والألحان العصبية التي يغزفها،

والقصائد الخيالية التي ينظمها ومنها قصيدة بعنوان «**القصر الذي تتردد إليه الأرواح**»، والأحاديث التي دارت بينهما وأدرك منها أن صديقه يعتقد بأن السكون المرعب الذي يسود المنزل كان له أثره الفعال في صوغ الأسرة بقالب خاص وصوغه هو في القالب الذي رآه فيه. ثم تموت الليدي مادلين فجأة، فيقرر شقيقها الاحتفاظ بجثمانها في أحد أقبية المنزل مدة أسبوعين قبل دفنها، فيساعده في نقلها إلى القبو، ويلاحظ أن وجه الميتة الشديد الشبه بوجه أخيها، كانت تطبعه مسحة من السخرية وابتسامة مريبة خفيفة. وينقضي أسبوع على وفاة الليدي ليزداد قلق المضيق، كما تنتقل عدوى القلق إلى الضيف، فيقضي الساعات الطوال ساهراً يراقب الرياح التي تهب على المنزل، ويصغي إلى تنهدات صديقه الذي أخذ يؤكد أن شقيقته وضعت في النعش وهي على قيد الحياة، وهي تحاول الآن تحطيمه والخروج منه. ويطالعان في ذات ليلة عاصفة أسطورة البطل إثلرد الذي ذبح التنين ليستولي على درع الشرف النحاسي الذي يحرسه، ولكن الدرع لم تنتظر وصوله إليها وسقطت على الأرض عند قدميه محدثة دوياً هائلاً. ويشعر الرجلان بأنهما يسمعان صوت وقوع الدروع فعلاً، وينتفض صاحب المنزل وهو يرتعد منتظراً دخول شقيقته لتوبخه لأنه دفنها على قيد الحياة. وتفتح الريح باب الغرفة الأبنوسي لتطل منه الليدي مادلين وقد لطخ الدم ثوبها الأبيض وبدت عليها آثار الجهد الكبير الذي بذلته في تحطيم نعشها، ثم تسقط أمام أخيها وهي تلفظ آخر أنفاسها، ويهرب الضيف مذعوراً من المنزل وتبتلعه مياه البحيرة الآسنة.

وفي سنة ١٨٤١ أصدر جورج غراهام مجلة باسم «**مجلة غراهام**» وعين إدغار بو ناقداً أدبياً فيها، فكتب عشرات المقالات والقصص، وكثر قراؤه والمعجبون به، ورفع مبيع المجلة من خمسة آلاف إلى خمسين ألف نسخة، ومع ذلك فإن جورج غراهام كان يعطيه أقل الأجور وكان يدفع لكاتب عادي يدعى جامس فنيمور كوبر ألف دولار عن كل قصة يكتبها في حين لم يدفع لإدغار بو عن قصته «**الخنفسة الذهبية**» سوى اثنين وخمسين دولاراً على الرغم من النجاح الكبير الذي أحرزته وانعكس على المجلة نفسها.

والواقع أن الخنفسة الذهبية من أجمل أقاصيص بو، ويروي الكاتب فيها أنه كان يتنقل بين حين وآخر من مدينة شارلستون حيث يقيم إلى جزيرة سوليفان لزيارة صديقه وليام لوغراند الذي هجر نيو أورليان مدينة أسلافه بعد سلسلة من النكبات حلت به واختار لإقامته هذه الجزيرة الصغيرة التي تشبه بحراً من الرمال. وكان لو غراند على مستوى عال من العلم ويتحلى بقوى فكرية خارقة، وهو يقضي أيامه في قنص الطيور وصيد الأسماك والتجول على امتداد الشاطىء وبين أشجار الرند، بحثاً عن الأصداف ونماذج الحشرات والهوام، ويقيم معه زنجي مسن يدعى جوبيتر يقوم على خدمته والعناية به. وقد زاره الكاتب مرة فوجده على غاية من السعادة والحماسة لأنه وجد خنفسة من نوع سكارابوس يعتقد بأنها صنف جديد لا مثيل له، ووعده بأن يريه إياها في اليوم التالي لأنه أعارها لملازم في الجيش التقاه في الطريق ثم ندم على حماقته هذه، فهي أبدع شيء في الكون، إنها بحجم البندقية، براقة، ذهبية اللون وتزين ظهرها بقعتان سوداوان إلى فوق وبقعة مستطيلة إلى أسفل. وجلس لو غراند إلى طاولته وأخذ يرسمها ليريه شكلها، ولما أتم الرسم ناوله الورقة وهو يؤكد له أنه قد صورها بكل دقائقها، وكان الراوي يلاعب كلب المنزل فوقعت الورقة على الأرض بجانب المدفأة، وحين التقطها ونظر إليها لم يجد عليها صورة خنفسة بل صورة جمجمة إنسان، فأعادها إليه مستغرباً ودهش لو غراند حين نظر إليها، وراح يتفحص الرسم بدقة، ثم أخفى الورقة في درج وأقفله بالمفتاح. وعاد الراوي إلى مدينته، وانقضى شهر على هذا الحادث، ثم زاره جوبيتر حاملاً إليه رسالة من لو غراند يدعوه فيها لزيارته لإطلاعه على أمر مهم. وأبدى جوبيتر قلقه على سيده، وراح يؤكد أن الخنفسة قد عضته في مؤخرة رأسه، وهو منذ ذلك اليوم يحلم بالذهب ويتحدث عنه في أثناء نومه، فرافقه إلى الجزيرة وما كاد يلتقي بلو غراند حتى أراه الخنفسة وكانت جميلة حقاً وفريدة من نوعها وثقيلة كأنها من الرصاص إلا أن لو غراند أكد أنها من الذهب، وأنها ستكون مصدر ثروة له، وطلب منه مرافقته في رحلة مهمة قد تستغرق طوال الليل، فقبل بعد إلحاح وإصرار، وانطلق لو غراند وضيفه وجوبيتر والكلب الكبير. وكان جوبيتر

يحمل منجلاً ومحافر، في حين حمل الضيف بعض الفوانيس، أما لو غراند فاكتفى بحمل الخنفسة وقد ربطها بخيط وتركها تحوم ذهاباً وإياباً كمن يقوم بضرب من السحر، وضيفه لا يشك في أنه قد فقد عقله ولكنه يرى أن أفضل وسيلة لإنقاذه هي مسايرته وإنعاش مخيلته. ولما أشرقت الشمس في الصباح كانوا قد وصلوا إلى بقعة نائية منعزلة من الجزيرة، فأخذ لو غراند يبحث عن علامات كان قد وضعها سابقاً، ثم توقف أمام شجرة كبيرة طلب من جوبيتر أن يصعد إليها ويده ممسكة بخيط الخنفسة، وحين وصل إلى الفرع بمسمار، فنظف لو غراند الأرض تحت ذلك الغصن، وأمره بأن يدخل الخنفسة على الأرض ضمن تلك الدائرة. واستمر الحفر طوال النهار من دون أن يسفر عن شيء، وإذا بلو غراند ينتفض ويمسك جوبيتر ويسأله أين عينه اليسرى، فيشير بيده إلى عينه اليمنى، فقرر معاودة التجربة من جديد، وأكد عليه أن يضع الخنفسة في العين الأخرى لأنه وضعها المرة السابقة في العين اليمنى لا اليسرى. وبعد ساعات من العمل الشاق أخذ الكلب ينبح بشدة ورمى نفسه في الحفرة وجعل ينبش التراب فيها، وإذا به يكشف عن هيكلين عظميين عليهما بعض الأزرار المعدنية وإلى جانبهما خنجر إسباني وبعض النقود. ولكن هذه النتيجة لم ترض لو غراند فطلب مواصلة الحفر، وأقبلوا عليه هذه المرة بحماسة وجدية، وإذا بهم يعثرون على صندوق كبير مفعم بالجواهر الثمينة والنقود الذهبية. وبعد نقل هذه الثروة الطائلة إلى المنزل على دفعات متتالية، يروي لو غراند لصديقه كيف اكتشف سر هذا الكنز فيقول: إن الورقة التي رسم عليها صورة الخنفساء لم تكن ورقة وإنما كانت رقاً وحده حيث وجد الخنفساء لم يجد عليه صورة الجمجمة ولكنه حين أعطاه إياه ووقع منه إلى جانب المدفأة في أثناء مداعبته للكلب ظهرت عليه صورة الجمجمة بفعل الحرارة، وقد أدرك أنها مرسومة بحبر خاص لا يظهر إلا على النار، وبقي أياماً وهو ينظف الرق ويعرضه على النار حتى بدا وكأنه وثيقة سرية تحمل في أعلاها صورة الجمجمة رمز القراصنة وفي أسفلها صورة الجدي رمز الكابتن كيد الربان الجدي، وبينهما كتابة بالشيفرة وهو أسلوب منطقي غاية في الذكاء والبراعة، وقد توصل بوساطته

إلى الشجرة التي دفن الكنز في جوارها، وإلى أن العلامة التي تشير إلى موضعه هي سقوط قطعة من الرصاص من عين الجمجمة اليسرى وعليه بعد ذلك أن يمد شريطاً لمسافة خمسين قدماً وعلى خط مستقيم كما فعل تماماً. ويسأله صديقه لماذا استخدم الخنفساء بدلاً من قطعة الرصاص، فيجيب بأنه لاحظ ارتيابه في سلامة عقله فقرر أن يعاقبه بإعطاء العملية طابع الغموض والسحر ليضاعف من شكه وارتيابه. ثم سأله عن الهيكلين العظميين فقال بأنهما ولا ريب هيكلا الرجلين اللذين ساعدا الكابتن كيد على نقل الكنز إلى هناك وقد قتلهما ليدفن معهما السر الذي اطلعا عليه.

وكان لانتقال بو من مجلة إلى أخرى، وعدم معاملته على المستوى الذي يستحق، أسباب مستمدة من سلوكه الشاذ وسلاطة لسانه وفقره الدائم وإدمانه الخمر والمخدرات. وهكذا فقد عمله في «مجلة غراهام» وعاد إلى نيويورك ليعمل في مجلة «مرآة المساء» ثم انتقل سنة ١٨٤٥ إلى «مجلة برودواي الأسبوعية». وفي هذه المرحلة اشتد مرض السل بفرجيني، وكان إدغار بو يقطن في منزل ريفي في فوردهام، فكان يحمل قطته كاترينا إلى سرير فرجيني لتدفئتها. واشتد به العوز إلى درجه كتب معها يوماً إلى أحد أصدقائه: «عزيزي غريس وولد. هل تستطيع أن ترسل لي خمسة دولارات؟ أنا مريض وفرجيني على وشك الموت!».

وفي فوردهام نظم إدغار بو قصيدته الشهيرة: «الغراب» ونشرها مع مجموعة من قصائده، وقد روى فيها أنه بينما كان يبحث بين الكتب في ليلة حزينة من ليالي كانون، عن الحكمة القديمة لينسى ألمه لفقد لينيور، سمع طرقاً على الباب، فقاوم خوفه وفتحه، ولكنه لم يشاهد سوى الظلمات. ولم يكد يعود إلى طاولته حتى سمع الطرق من جديد، ففتح النافذة هذه المرة، وإذا بغراب كبير الحجم يدخل منها ويجثم على تمثال نصفي لمنيرفا موضوع فوق الباب، فيسأله الشاعر من هو وما اسمه، فيجيب بكلمة واحدة: أبداً. بهذه الكلمة وحدها كان الغراب الساكن المهيب يجيب على كل سؤال يطرحه

الشاعر. أبداً لن تستطيع الملائكة المرسلة من الله أن تحمل إليه النسيان وتخفف آلامه وأحزانه. أبداً لن يعانق في الغيب المجهول الفتاة التي كان يحبها. أبداً لن يعود الطائر الشيطاني إلى مملكة الرعب الليلة. إلى الأبد سيبقى ساكناً فوق تمثال منيرفا الشاحب بعينيه الشبيهتين بعيني الشيطان. أبداً لن تستطيع نفس الشاعر أن تتحرر من وجوده المشؤوم:

والغراب الجاثم من دون حراك

لا يزال رابضاً على تمثال منيرفا الشاحب

وفي عينيه كل مخايل شيطان يحلم

وضوء المصباح الذي ينساب فوقه

يلقي ظله على الأرض!

وماتت فرجيني سنة ١٨٤٧ فدفعه الألم مرة أخرى إلى أحضان الخمر والمخدرات، وظلت عمته تعنى به وتساعده على النهوض من وهدته وانتشاله من الانهيار وإعادته إلى حياته الأدبية وإنتاجه القصصي، وقد رثى زوجته الشابة في قصيدته الرائعة «**أنابيل لي**» التي نقلنا قبلاً أبياتاً منها، ومما جاء فيها:

لا يستطع القمر إلا ويعيد إلي أحلام حسنائي الجميلة

ولا تتألق النجوم إلا وأشعر بصفاء عينيها

وهكذا، طوال الليل، أرقد في جوار حبيبتي

حبيبتي وحياتي وعروسي

في ضريحها هناك جوار البحر

في قبرها بقرب البحر الصاخب

وكانت شهرته قد تعاظمت والمعجبون به يتكاثرون، فاستعاد صحته وصفاءه بعض الوقت وكتب كثيراً وحاضر في مختلف الأندية ورحل إلى إنكلترا

حيث التقى في إحدى محاضراته بالأديبة السيدة ويتمان التي أعجبت به واتفقا على الزواج، ولكنها ما لبثت أن نفرت منه لأنها كانت أكبر منه سناً ولأنه كثيراً ما كان يشاهد على أرصفة الشوارع فاقد الوعي ملوث الثياب. ثم التقى برفيقة صباه وحبه الأول، ألمير روبستر، وكان زوجها قد توفي وورثت منه ثروة كبيرة، فاتفقا على الزواج، ولكنه ما لبث حتى وجد ذات صباح من شهر تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٨٤٩ ملقى على جانب الطريق في أحد شوارع بلتيمور وهو غائب عن الوعي من شدة السكر، ولم يعثر رجال الشرطة في جيوبه على شيء من المال أو على بطاقة تدل على هويته، ولما نقل إلى المستشفى استطاع الطبيب أن يستنطقه بضع كلمآت علم منها أن اسمه «إدغار ألن بو» ولم يكن هذا الاسم بغريب على الطبيب، فطمأنه بأنه سيشفيه بعد قليل، ولكن ذلك لم يسعده فقال له: إن أكبر خدمة تسديها لي هي أن تطلق على رأسي رصاصة تريحني من هذه الحياة. وعاد المريض إلى غيبوبته ليستفيق بعدها على نوبة الهذيان التي كانت تنتابه حيناً بعد آخر، واستمر صراعه مع الموت أربعة أيام وهو يردد متوسلاً: يا إلهي ارحم نفسي المعذبة.. ثم فارق الحياة وهو في الأربعين من عمره.

لقد كان إدغار ألن بو شاعر الرعب قبل أي شيء آخر، ولم يكن أدبه كله إلا ملحمة مأتمية يسكنها موت النساء الثلاث اللواتي أحبهن. أمه الحقيقية وأمه بالتبني وزوجته فيرجيني، وتظللها نوبات الإدمان (داء الغول) التي كانت تنتابه بتزايد مستمر، وهلوسات المخدر الذي كان يضاعف من قلقه وتوتره، بدلاً من أن يقوده إلى النسيان والضياع.

وإذا كانت قصص بو لا تختلف في الظاهر عن قصص الرعب التقليدية، فإنها قد بنيت في الواقع على بعد نفساني مختلف. فقصص بروسبيرو المنعزل في قصة **«قناع الموت الأحمر»** والبحر المخيف في **«الانحدار إلى ماليستروم»** ومنزل أوشر المشؤوم في **«انهيار منزل أوشر»** التي لا يصف بولنا أشكالها بقدر ما يصف الانقباض الذي يخامر المرء لدى رؤيتها، تضم شخصيات شاذة هي

فريسة الهلوسات، وفي حال نفسانية غير طبيعية. فلا شيء مرعب يقع لهؤلاء ولكن رؤيتهم للعالم هي التي تحملهم على الرعب وتصور لهم الشيء المرعب.

ففي «**قناع الموت الأحمر**» ينتشر في البلاد وباء يدعى «الموت الأحمر» ومتى ظهرت علامات هذا الوباء على أحد وأبرزها البقع القرمزية، ابتعد عنه الناس خوفاً وهلعاً. وأمام هذه الكارثة التي قضت على نصف السكان جمع بروسبيرو أمير البلاد ألفاً من الفرسان الأصحاء الشجعان ولجأ معهم إلى دير شبيه بالحصن كان قد أشرف على بنائه بنفسه وحسب ذوقه الخاص، وبينما كان الطاعون يفتك بالناس خارج الدير، قرر الأمير الترفيه عن فرسانه بإقامة حفلة تنكرية راقصة. وكانت غرف الدير السبع مبنية على طراز خاص يكشف بعضها على بضع في آن وكل منها مزخرفة بلون خاص أما الغرفة السابقة فكل ما فيها أسود رهيب باستثناء زجاج نوافذها الذي كان أحمر مثل الدم القاني كما أن فيها ساعة ضخمة ترسل صوتاً موسيقياً عجيباً تتجمد له أطراف مستمعيه. وعند انتصاف الليل لاحظ الراقصون أن بينم مقنعاً غريباً ثوبه ملطخ بالدماء ووجهه تغطيه البقع القرمزية، وأخذوا يتهامسون بأنه يحمل جرثومة الوباء الأحمر، وصرخ الأمير غاضباً لهذه الدعابة السمجة، وأمر بالقبض عليه لشنقه جزاء له على سوء تصرفه، فلم يجرؤ أحد على الدنو منه، وسار بهدوء إلى غرفة أخرى حتى وصل إلى الغرفة السوداء، فلحق به الأمير بنفسه واستل خنجره ليطعنه به وإذا به يسقط ميتاً إلى جانبه، وذعر الفرسان الشجعان لما حل بأميرهم وانقضوا إلى المقنع الغريب ونزعوا قناعه فوجدوا أن القناع لم يكن سوى كفن يغطي هيكلاً عظمياً. فأيقنوا بأنهم ماثلون أمام «الموت الأحمر» الذي تسلل إلى قصرهم المحصن، وبدأوا يتساقطون صرعى واحداً بعد آخر، وتوقفت الساعة الأبنوسية عن الحركة إثر مصرع آخر فارس منهم.

ولكن الرعب في قصص إدغار ألن بو لا يبعث على النفور والهلع، بقدر ما يرهف الشعور ويحفز الإحساس. وفي هذا الرعب يبحث بو عن سر الجمال. فجمال المرأة في قصصه هو في أغلب الأحيان جمال ذابل أرخى

الموت عليه رداءه الشفاف، كأن موت أمه والسيدة التي تبنته وزوجته فيرجيني قد ترك في نفسه أثراً عميقاً فبات شعوره لا يتحرك إلا أمام امرأة مشرفة على الموت!

ولعل أجمل قصص الرعب في نتاج بو قصة **«القلب الواشي»** وقصة **«القط الأسود»** ففي الأولى يبدأ الراوي حديثه بتأكيده لنا أنه ليس مجنوناً وإن كانت الأمراض قد أرهفت أحاسيسه ولا سيما حاسة السمع فهو يسمع أصواتاً من السماء وأخرى من أعماق الأرض. ثم يحار كيف يفسر لنا إقدامه على قتل شيخ مسن، فهو لم يسيء إليه، لو لم يكن راغباً في ماله، ولكنه لم يكن ليستطيع النظر في عنينه، هاتين العينين الشبيهتين بعيني العقاب، وهما زرقاوان متقعتان تعلوهما غشاوة، ولكم وقعتا عليه أحس أن الدم البارد يسري في عروقه، حتى بات يفكر في قتله ليتخلص من عينيه إلى الأبد. ولكي يقنعنا بأنه ليس مجنوناً فهو يصف لنا الخطة المحكمة التي انتهجها للقضاء عليه. فقد حمل مصباحاً وتسلل إلى غرفته بعد منتصف الليل ليقتله وهو في فراشه، ولكنه استيقظ إثر حركة طارئة، وأخذ يسأل من هناك، فلم يجبه سوى دقات الموت الصادرة عن الساعة، ولم ينهض الرجل إلا أنه لم ينم أيضاً، فهل كان يشعر بدنو الموت منه. ولما طال انتظاره من دون طائل، فتح المصباح الذي كان يحمله فتحة صغيرة فصدر عنه شعاع ضعيف كخيط العنكبوت وانصب على عيني العقاب مباشرة، فتضاعفت ثورته، وسلط نور المصباح على وجهه كله، وإذا به يسمع صوت خفقان قلب الشيخ، وتعاظمت دقات القلب حتى بات يخشى أن يسمعها الجيران فلم يجد بداً من الانقضاض وقلب الفراش الثقيل عليه حتى مات ولم يعد يزعجه بعد الآن بعينيه الشبيهتين بعيني العقاب. ثم عمد إلى الجثة فقطعها، وخلع ثلاثة ألواح من أرض الغرفة وحشر بقايا الشيخ فيها، وأعاد الألواح إلى مكانها وغسل آثار الدماء. وكان الجيران قد سمعوا صراخ القتيل فاستدعوا الشرطة، ففتح لهم مطمئن البال وقال لهم إنه كان يصرخ في نومه، وإن الشيخ مسافر إلى الريف، ودخل معهم إلى غرفة القتيل وأحضر لهم المقاعد ليستريحوا ووضع مقعده فوق بقايا الضحية مباشرة وجلس عليه.

وبعد أن اطمأن رجال الشرطة وأخذوا يثرثرون فيما بينهم في مواضيع شتى، شعر بطنين في أذنيه ثم أدرك أن الطنين لم يكن يصدر عن أذنيه بل عن قلب القتيل تحت الألواح، فأخذ يتحدث بصوت عال كي لا يسمع الشرطيون ذلك الصوت، ولكن الطنين يزداد ويتعالى ويتعالى والشرطيون لا يزالون يثرثرون هادئين. . . أيعقل ألا يكونوا قد سمعوا الطنين؟ كلا، لا ريب في أنهم يسمعونه ويسخرون من الرعب البادي على وجهه، وهو لم يعد يطيق هزأهم وسخريتهم فيصرخ بهم: أيها الأشرار، كفوا عن نفاقكم. . إنني أقر بجريمتي، فانزعوا الألواح الخشبية ها هنا. . . حيث تجدون قلبه الخائف يخفق عالياً!

أما قصة «**القط الأسود**» فإن القاتل يروي لنا فيها تسلسل الأحداث التي أدت به إلى ارتكاب الجريمة، لأنه سيعدم في اليوم التالي ويريد أن يلقي هذا العبء الثقيل عن كاهله، وهو يؤكد لنا أنه كان يتصف منذ صغره بالطاعة والشفقة ورقة القلب والعطف على الحيوان، فكان لدى والده مجموعة منه، ولما كبر وتزوج اقتنى أنواعاً مستحبة منها، بينها قط أسود كبير الحجم ناعم الملمس يدعى بلوتو، وقد استمرت الصداقة بينهما سنين عديدة، ثم أدمن على شرب الخمر وأخذت أخلاقه تسوء من جراء ذلك، وعاد ذات ليلة إلى المنزل مخموراً، وخيل له أن القط يتهرب منه، فأمسك به بشدة فارتعب وعضه عضة خفيفة، فغضب غضباً شديداً وقض عليه وانتزع إحدى عينيه من محجرها. وندم في اليوم التالي ولكنه تمادى في إقباله على الخمر، وتعافى القط ولكن مشهد عينه الفارغة كان مفزعاً حقاً. فقبض عليه ذات ليلة وشنقه على شجرة الحديقة، وبينما كان يفعل ذلك شبت النار في منزله فهرع لإطفائها، ولما خمدت النار رأى على جدار غرفة نومه صورة قط كبير والحبل معلق في عنقه. فدهش لذلك وعلله بأن أحد الجيران أبصر القط معلقاً على الشجرة فقطع الحبل وقذف به إلى غرفته عبر النافذة بقصد إيقاظه من نومه لإخماد النيران المندلعة في المنزل، فانهار الجدار المقابل للسرير على الجدار القائم فوقه وانحصر القط بينهما وطبع هيكله على الجص الطري، وكان للكلس والنار وملح النشادر أن تضافرت على إبراز صورته. وبعد مدة من الزمن شاهد في إحدى الحانات قطاً أسود يشبه

بلوتو كثيراً باستثناء كتلة من الشعر الأبيض غطت عنقه وجزءاً من صدره. وأنشأ القط يتمسح به متودداً، ولما غادر الحانة لحق به، فأخذه إلى المنزل وفرحت به زوجته كثيراً وازداد فرحها حين لاحظت بعد قليل أنه أعور مثل بلوتو. ولكن هذه الملاحظة أزعجته فنفر منه وصار يتجنبه بينما كان القط يزداد التصاقاً. وكانت الزوجة تؤكد له أن هذا القط ليس بلوتو بدليل الشعر الأبيض في عنقه، ولكن هذا الشعر كان يضيق مع الزمن ويأخذ شكلاً مرعباً هو شكل حبل المشنقة، فتحول نفوره منه إلى خوف شديد. وبينما كان ذات يوم في القبو مع زوجته لحق به القط وتعثرت به قدماه، ففقد وعيه ورفع الفأس ليسحقه، غير أن زوجته أمسكت بيده وحالت من دون ذلك، فأهاجه ذلك وهوى بالفأس على رأسها فحطمه، وسقطت على الأرض جثة هامدة. وكان في جدار القبو فتحة واسعة هي بقية موقد قديم فحشر الجثة فيها وسدها بالحجارة والترابة القديمة وأخذ يبحث عن القط فلم يجده فتأكد له أنه هرب خوفاً منه. وعندما شاع نبأ اختفاء الزوجة جاء رجال الشرطة للبحث عنها، ونزلوا مع الزوج إلى القبو ففتشوا كل جزء فيه ولم يجدوا ما يريبهم، وكان يتحدث معهم باطمئنان وفي يده قضيب، وما قاله لهم أن المنزل محكم البنيان وجدرانه منيعة، وأخذ ينقر بالقضيب على المكان الذي أخفى الجثة فيه، فإذا بصوت غريب يسمع من جوف الجدار ما لبث حتى يتحول إلى صياح عال متواصل، فهرع الشرطيون إلى الجدار يعملون فيه معاولهم وسرعان ما سقطت الجثة وتبين أن القط الأسود كان قد دخل إلى الفتحة فأغلقها عليه مع الجثة، وهو الذي وشى به بصوته.

وقد ظلت شهرة بو في أميركا محدودة ومكانته غير معترف بها، حتى قام بودلير بترجمة قصصه إلى الفرنسية وتبعه مالارمه بترجمة شعره إلى هذه اللغة، فأدهش الأوساط الأدبية الأوروبية، وتسابقت في ترجمة نتاجه إلى لغاتها، وتأثر به شعرياً كل من بودلير وفرلين ورامبو في فرنسا وميتس في إيرلندا وماترلنك في بلجيكا واعتبر مؤسساً للحركة الرمزية في الأدب الحديث، كما تأثر به قصصياً كل من كونان دويل وويلز وأوسكار وايلد في إنكلترا وجول فرن وغابريو في فرنسا واعتبر مبدع القصة البوليسية العلمية. وانعكس ذلك على الولايات

المتحدة الأميركية فنشرت مؤلفاته من جديد، ودرست دراسة مسهبة واعتبره النقاد الأميركيون إحدى قمم الأدب الأميركي الحديث، وبيعت مسودة قصيدته «**الغراب**» بعشرين ألف جنيه وكان بو قد باعها لأحد الناشرين بجنيهين، وكتب الناقد الأميركي دانفورث روس: «إن إدغار ألن بو أكثر التزاماً للنظريات من واشنطون إيرفنغ، وبالحقيقة إن بو قد أدخل نظريات كتاب «**الشعر**» لأرسطو إلى القصة القصيرة فكان بذلك أول كاتب أميركي يرى القصة شكلاً من أشكال الأدب وهو كأرسطو يعتبر أن كل عناصر القصة أمور ثانوية بالنسبة إلى الحركة ككل، ويقول بو بأن الفنان الأديب يتمثل تأثيراً مميزاً أو تأثيراً واحداً ما يجب إبرازه، وعندئذ يأخذ في العمل في ابتداع الحوادث ويدمج منها ما يساعده على أحسن وجه في ترسيخ التأثير الذي تمثله. وهو يرى أنه يجب في العمل الأدبي أن لا تكتب كلمة واحدة لا تتجه بشكل مباشر أو غير مباشر إلى التصميم الذي وضعه. فبهذه الوسائل وبتلك المهارة والكفاية، يبرز أخيراً رسم يترك في ذهن من يتأمله ـ مقارناً إياه بفن مماثل ـ إحساساً بالرضى التام. وهذه النظرية تعلن عن ماهية القصة الحديثة فإذا ما اتبعت فإنها تؤدي للمرة الأولى إلى إيجاد توتر في القصة وهو الأمر الذي اقتصر طويلاً على الشعر».

ولا تكتمل الصورة الأدبية لبو إلا إذا عرضنا بعض قصص التشويق العلمي التي كان أول مبدعيها في الأدب العالمي، ولعل أشهرها قصة «**جريمة مزدوجة في شارع مورغ**» التي يتحدث فيها الراوي عن صديق له يدعى أوغست دوبان تعرف به في إحدى مكتبات باريس وكانا يبحثان فيها عن كتاب واحد نادر الوجود، وقد أدهشته كثرة مطالعاته وتصوراته الفنية الحية على الرغم من فقره وحاجته، فاتفق معه على أن يسكنا في بيت واحد، واستأجرا بيتاً مهجوراً مؤثثاً على طراز يناسب خيالهما، وانعزلا فيه عن الناس. وكان دوبان يتعشق الليل، فكانا يقفلان الأبواب والنوافذ في خلال النهار ويضيئان الشموع ذات الرائحة القوية، فإذا ما أقبل المساء خرجا يتسكعان في الشوارع، من دون أن يأبها للآخرين لأن أغلب الرجال بالنسبة إلى دوبان هم عبارة عن نوافذ بالية وبينما كانا يسيران ذات ليلة لفت انتباههما اهتمام الصحف بجريمة غير عادية وقعت

في شارع مورغ وذهبت ضحيتها مدام لاسباناي وابنتها اللتان كانتا تقطنان في الطابق الرابع من أحد الأبنية هناك، وكانت الجريمة شنيعة حقاً لأن الضحيتين قد مزقتا تمزيقاً رهيباً وتبعثر كل ما في منزلهما من دون أن يمس القاتل أو القتلة أموالهما ومنها كيسان من النقود الذهبية كانتا قد سحبتاها من المصرف وحملها إليهما قبل يومين موظف فيه يدعى آدولف لوبون، كما كانت جريمة محيرة لأن الجيران عندما سمعوا الصراخ في أواخر الليل اتصلوا بالشرطة فأحاطت بالمنزل ولم يشاهد القتلة وهم يغادرونه كما أنهم لم يتركوا أي أثر يدل عليهم باستثناء كتلة من الشعر الأبيض علقت بحافة الموقد. وقد اتفقت شهادات الشهود على أنهم سمعوا داخل المنزل صوتين مختلفين أحدهما خشن يتكلم صاحبه الفرنسية وثانيهما حاد لم تعرف اللغة التي كان يتكلم بها. وقد اعتقل لوبون موظف المصرف على ذمة التحقيق. وكما أثارت هذه الجريمة اهتمام الباريسيين وصحفها فقد أثارت اهتمامهم دوبان الذي قرر الاشتراك في حل ألغازها، وذهب مع صديقه إلى المنزل الذي وقعت فيه بعد استئذان مدير الشرطة ففحصه فحصاً دقيقاً من داخله وخارجه، وعاين الجثتين بأناة واهتمام، ثم ذهب إلى إدارة إحدى الصحف فبقي فيها مدة يسيرة وعاد بعد ذلك إلى المنزل إلا أنه لزم الصمت حتى ظهر اليوم التالي، وحينئذ قال لصديقه إنه ينتظر قدوم رجل لا يعتقد بأنه القاتل ولكن له ضلعاً بالجريمة، وطلب منه الاحتفاظ بمسدسه كما فعل هو على ألا يستخدماه إلا عند الضرورة. وحين أبدى الصديق دهشته من ذلك أجابه بأنه تأكد له أن إحدى النافذتين ذات مسامير مخلوعة وهي تظل مفتوحة حتى عندما تغلق درفتاها وقد دخل القاتل منها وغادر المنزل منها أيضاً، وقد لاحظ أن إلى جانب النافذة قضيباً للصاعقة لا ريب في أن القاتل قد استعان به للصعود والهبوط معاً. أما هذا القاتل فإن وقائع الجريمة تدل على أنه يتمتع بقوة غير عادية، وقد تبين له أن الشعر الأبيض الذي وجد عالقاً بالموقد لم يكن شعر إنسان بل شعر قرد وأكد له ذلك أثر الأظافر الذي وجد على عنق القتيلة، ولهذا فقد تبين له أن القاتل قرد من نوع الأورانغ أوتانغ ذي القامة الهائلة والقوة الخارقة والوحشية المروعة، وهذا هو تفسير الصوت الحاد الذي سمعه الجيران

ولم يعرفوا بأي لغة كان يتكلم، وأما الصوت الذي كان يتكلم بالفرنسية فهو صوت صاحب القرد وقد سمعه الجيران يقول: يا إلهي! ولا ريب في أن الوحش قد فر منه وتعقبه حتى غرفة القتيلتين ولم يستطع القبض عليه.

والراجح أنه لا يزال طليقاً. وقد ذهب دوبان بعد مغادرته منزل الجريمة، إلى إدارة إحدى الصحف حيث نشر إعلاناً يقول فيه إنه عثر على قرد من نوع الأورانغ أوتانغ في غابة بولونيا، وفي وسع صاحبه وهو بحري يعمل في سفينة مالطية أن يتصل به لاستلامه، ووضع عنوان المنزل، أما كيف عرف أن صاحب القرد بحار مالطي، فتفسيره أنه عثر على قضيب الصاعقة على قطعة من شريط يعقده البحارة المالطيون على ضفائرهم الطويلة. وفي هذه اللحظة دخل إلى المنزل بحار ملتح يحمل هراوة ضخمة، فاستقبله دوبان بلطف وهدأ من روعه، وأكد له أنه سيسلمه قرده إذا حدثه عن غوامض جريمة شارع مورغ. فأسقط في يد الرجل وروى لهما أنه أسر القرد في إحدى جزر الهند الشرقية وجاء به إلى باريس ليبيعه، وعاد ذات ليلة إلى منزله فوجده في غرفة نومه، وقد جلس أمام المرآة وفي يده موس حلاقة يمرره على خده مقلداً بذلك صاحبه، فجاء بالسوط ليضربه ويستعيد الموس منه، فهرب القرد والموس في يده، وكانت الشوارع فارغة لأن الساعة قاربت الثالثة صباحاً، فظل يطارده حتى وصلا إلى شارع مورغ، وشاهد القرد الضوء في نافذة السيدة لاسباناي فتسلق على قضيب الصاعقة ودخل إلى الغرفة، فلحق به صاحبه وشاهده وهو يمرر موس الحلاقة على وجه المرأة ثم يهيجه مشهد الدم فيقوم بأعماله الوحشية، وزاد هياجه حين رأى السوط في يده، وخشي الرجل عاقبة هذه الجريمة الرهيبة فغادر الغرفة من حيث أتى، ولا ريب في أن القرد قد لحق به أيضاً حين سمع أصوات الجيران وقرعهم على الباب. وهكذا حلت ألغاز الجريمة غير العادية، وأفرج عن موظف المصرف.

ومن الواضح أن تلخيص هذه القصص لا يمكن أن يعكس خصائصها الفنية، وأهمها البناء المتكامل والرؤية العلمية والوصف الدقيق والتسلسل البارع،

والأسلوب الشعري الشفاف الذي يظلل ذلك جميعاً.

وعلى الرغم من الفقر والمرض الإدمان التي أتلفت قواه ومقدرته على العمل، فقد أنتج إدغار ألن بو في تلك المرحلة القصيرة من حياته سبعين قصة بين صغيرة وكبيرة بالإضافة إلى قصائده الكثيرة. وكانت هذه القصص والقصائد مرآة لروح قلقة تجد في العذاب قدرها وفي الفن خلاصها، وكما سقط منزل أوشر في مستنقع عميق، كان إدغار ألن بو يشهد سقوطه من دون أن يحاول النجاة من الهوة التي تبتلعه.

جيوفاتي بوكاشيو واللغز الرابع في «ألف ليلة وليلة» الإيطالية

يعد جيوفاني بوكاشيو رائد النثر الحديث في الأدب الإيطالي، وقد كان معاصراً لدانتي وبترارك ومعجباً بهما، وما لبث حتى حاكاهما شهرة بإبداعه كوميديا بشرية أنتجها الأديب الغربي في أواخر القرون الوسطى ومستهل عصر النهضة.

ويقول أحد النقاد: «كان المثقفون في ذلك العهد مشغولي الأذهان بالألغاز الثلاثة التي قدمها دانتي لهم، وهي الجحيم والمطهر والجنة، أما بوكاشيو فكان مشغول الذهن وشغل الناس معه باللغز الرابع وهو الدنيا. وقد قيل على سبيل الموازنة بين الأديبين، إن دانتي جسد تحول إلى روح، أما جيوفاني فروح تحول إلى جسد».

ولقد لخص بوكاشيو فلسفته في حوار أداره بين ديوجين والإسكندر الكبير:

قال ديوجين: ما هو هدفكم الآن يا صاحب الجلالة؟

قال الإسكندر: أن أتغلب على أثينا.

فقال الإسكندر: أغزو فارس.

وقال ديوجين: ثم ماذا؟

فقال الإسكندر: أفتح مصر.

قال ديوجين: وبعد مصر؟

قال الإسكندر: سأغزو العالم.

وقال ديوجين: وبعد أن تخضع العالم؟

قال الإسكندر: أستريح وأطمئن وأغرق في المباهج والمسرات.

فقال ديوجين: ولماذا لا تستريح وتطمئن وتغرق في المباهج والمسرات منذ الآن؟

ومن هذه الفلسفة انطلق بوكاشيو في دروب الحياة لا يتوقف إلا عند مباهجها، ولا يستهويه إلا مسراتها، ولا يستطيب إلا الفاكهة المحرمة فيها، ولا ينظر إلى ماض أو آت وإنما يعيش اللحظة الحاضرة بكل لذائذها. وقد انعكس ذلك في أدبه فكان أدباً عاطفياً مرحاً ومتوهجاً، زاخراً بالحب والجمال، غنياً بالمتعة والطرافة، مع الندامى والمحظيات، في بداية انهيار النظام الإقطاعي وصعود الطبقة المغامرة المتطورة من الصناعيين والتجار.

ولد جيوفاني بوكاشيو سنة ١٣١٣ وكان ابناً غير شرعي للصيرفي الإيطالي بوكاشيو داشيللينو، وقد اختلف النقاد حول أمه فقال بعضهم إنها فرنسية وقال آخرون إنها إيطالية، ولكنهم مجمعون على أنه كان ثمرة علاقة غرامية غير شرعية.

وقد قضى سنوات طفولته في حي سان بورتيناري التي تنتسب إليها بياتريس عشيقة دانتي. ولعل محبته للشاعر الإيطالي العظيم التي بلغت حد التقديس، ترجع إلى هذه الأسرة كما ترجع إلى أستاذه جيوفاني مازولي.

ولم يكد يبلغ سن الثانية عشرة حتى أرسله أبوه إلى نابولي ليتدرب في المؤسسة المصرفية التابعة لأسرة باردي التي كانت تقوم بالشؤون المالية في بلاط أسرة آنجو. ولكن آمال أبيه في توجيهه نحو العمل المصرفي سرعان ما خابت، لأن ما يجري في عروقه هو الدم الأدبي في حين يجري الذهب في عروق أبيه. فألحقه بجامعة نابولي لدراسة المحاماة، ولكنه كان يدرس في

الجامعة كل شيء باستثناء كتب القانون. وهكذا اتجه الشاب اتجاهاً أدبياً صرفاً والتحق ببلاط نابولي الذي يغشاه عدد كبير من الأدباء والمفكرين.

وكان بلاط أسرة أنجو ملتقى الحضارات الإيطالية والفرنسية والعربية والبيزنطية، فكان له أثر فعال في تثقيف بوكاشيو وصقل مشاعره وانغماسه في متارف اللهو. ومن أدبه في ذلك العهد هذه القصيدة التي تعبر عن نفسيته وعن المناخ الذي يعيش فيه:

«ثلاث فتيات صغيرات جلسن على ضفة نبع صافي المياه

وكن يتبادلن أقاصيص الحب..

فقالت إحداهن: تذكرون يا صاحبتي

فبعد ساعة يأتي العشاق إلى هذا المكان

ترى هل سنجري هاربات ويعترينا الخوف؟

فقالت الصديقتان: مجنونة تلك الفتاة التي تهرب من أسعد اللحظات».

وفي هذه البيئة يمتزج فيها الطموح الأدبي ومغريات الحياة الناعمة، أصدر أربعة كتب شعرية وقصصية وصف فيها تلك الأجواء الساحرة وروى بعض مغامرات شبابه، وأهمها رواية «فاميتا» التي تروي فيها البطلة بكثير من الشاعرية والحنان سيرة شبابها والتقائها مع بامفيل والحب الذي جمع بين قلبيهما، واضطراره للسفر إلى فلورنسة، ثم يبلغها نبأ زواجه هناك، وفيما هي غارقة في الحزن واليأس تعلم أن الذي تزوج هو والد بامفيل، فتعاودها بهجتها إلا أن سعادتها لا تطول لأن بامفيل كان يخونها بين ذراعي فلورنسية حسناء. وتقرر فاميتا الإنتحار ولكن مربيتها تحول من دون ذلك، ولا تلبث حتى تشكر للمربية يدها لأنها تعلم أن بامفيل عائد إليها، وسوف تعود فرحتها وسعادتها. ويقول النقاد: إن بوكاشيو قد كتب في هذه الرواية قصة غرامه بماريا داكينو وهي ابنة غير شرعية للملك روبير ملك صقلية، ولكنه قلب الحقائق وبدّل الوقائع، لأن بوكاشيو وهو الذي أحب ماريا أكثر من حبها له، وهي التي تخلت عنه وليس هو الذي تخلى عنها كما جاء في الرواية.

وفي سنة ١٣٤٥م تعرضت شركة باردي التي كان أبوه أحد عملائها، لأزمة اقتصادية تركت أثراً كبيراً في حياته، وحملته إلى آفاق الضيق بعد آفاق الرخاء والرفاهية. وقد انتقل إلى بلاط أوستازيو دابولنتا في دارفين، ثم إلى بلاط فرنسيسكو اورديلاني في فورلي، وعاد إلى فلورنسة سنة ١٣٤٧ حيث شاهد آثار الطاعون الرهيب الذي تعرضت له المدينة وقضى على ماريا «أوفاميتا» عشيقته القديمة.

وقد توج بوكاشيو أعماله الأدبية بكتاب **«ديكاميرون»** أو **«الأيام العشرة»** الذي عكف على كتابته من سنة ١٣٥٠ إلى سنة ١٣٥٥، فوضع فيه كل خبرته الفنية وتجارب حياته، وارتفع بفن القصة إلى مستوى لم تكن قد بلغته في القرون الوسطى.

وكان والده قد توفي سنة ١٣٤٩ فتولى إدارة أعماله، وتبوأ مركزاً اجتماعياً مرموقاً زادت شهرته الأدبية في توطيده، وعين سفيراً لبلاده لدى حكومة روماني، وممثلاً جمهورياً في فلورنسة في بارتو، ولدى لودفيك دوبافير، ثم سفيراً لدى إينوسان الرابع وأوربان الخامس في أفينيون. ولكن هذه المهمات الفخرية لم تنقذه من الضائقة الاقتصادية التي أغرقه فيها إفلاس شركة باردي. ولهذا فقد عاد إلى نابولي غير مرة محاولاً الحصول على وظيفة مجدية، ولكنه أخفق في ذلك، ما دفعه سنة ١٣٦٣ إلى الاعتزال في منزله العائلي بسيرتالدو، والاتجاه بأدبه اتجاهاً إنسانوياً ولاهوتياً، وهو اتجاه يناقض إنتاجه القديم.

وكان بوكاشيو قد أعجب ببترارك وسعى إليه، واجتمع به مرات عدة فدارت بينهما مناقشات تبعتها مراسلات جعلت منهما كما يقول بترارك «نفس واحدة في جسدين» وتركت في وجدان بوكاشيو آثاراً لاهوتية واضحة.

وفي السنوت العشرة الأخيرة من حياته، أضحى منزله مهداً للنزعة الإنسانوية الحديثة العهد، وكان يلتقي فيه الكثيرون من أقطابها، وبدأ ينقح معظم مؤلفاته أو يعيد كتاباتها من جديد، ويفرغ عليها نفحة من الإيمان تتعارض مع شكوكه القديمة ونزعاته الإباحية.

ولما توفي بترارك سنة ١٣٧٤، كان بوكاشيو قد بدأ يلقي في الكنيسة مقاطع من «**الكوميديا الإلهية**» لدانتي ويشرحها ويعلق عيلها، فلما وصل إلى كتاب «**الجحيم**» توقف عن متابعة ذلك وشعر بفراغ عظيم في حياته، وتحول أدبه إلى شكوى مرة ونواح دائم. وما لبث حتى فارق الحياة في السنة التالية، تاركاً تسعة مؤلفات شعرية وقصصية وتأملات وجدانية، ولكن شهرة «**ديكاميرون**» طغت عليها جميعاً، فصدرت في العديد من الطبعات وترجمت إلى معظم اللغات، وشبهها النقاد بقصة «**ألف ليلة وليلة**» العربية وأكدوا تأثر بوكاشيو بها واقتباسه منها، كما أكدوا تأثر شكسبير ودريدن وموليبر وغيرهم بكتابه الضخم.

ويتألف كتاب «**ديكاميرون**» من مائة قصة، وهي تشبه قصص «**ألف ليلة وليلة**» من حيث كونها قصصاً شعبية تعتمد على الطرافة والخيال والمفاجأة، ولكن قصص «**ألف ليلة وليلة**» أكثر غنى وأسمى خيالاً وأشد تشويقاً. وكما أن مؤلف القصة العربية الخالدة قد انطلق في حكاياته من قصة الملك شهريار الذي نقم على النساء لخيانة زوجته له، فأنشأ يتزوج كل ليلة فتاة جديدة ثم يسلمها في الصباح إلى يد الجلاد لقتلها، حتى جاءت شهرزاد فاحتالت عليه بقصصها للابقاء على حياتها وكانت تروي له القصة حتى إدا ما وصلت إلى موقف الخطر والتشويق فيها «أشرق الصبح ولاح وتوقفت شهرزاد عن الكلام المباح»، وأرجأت تتمة القصة إلى الليلة التالية، فيستبقيها الملك لسماع هذه التتمة وإذا بها تنتقل منها إلى قصة جديدة ببراعة فنية خارقة، كذلك انطلق بوكاشيو من كارثة الطاعون الأسود الذي اجتاح سنة ١٣٤٨ إيطاليا وأوروبا جميعاً، فقال: إن عصبة مؤلفة من سبع نساء وثلاثة رجال اتفقوا على اتقاء الوباء بالهرب من فلورنسة والاعتزال في قصر ريفي جميل، ثم رأوا أن يشغلوا أنفسهم ويملأوا فراغ أيامهم بالحكايات المسلية، على أن يتولى الملك كل يوم واحد منهم، وعلى هذا الملك أن يختار موضوعاً عاماً لقصص ذلك اليوم ويطلب منهم واحداً بعد آخر رواية القصص التي تدور في إطاره. ومن هنا جاء اسم المجموعة «**ديكاميرون**» أي «**الأيام العشرة**» وكانت حصيلة هذه الأيام مائة قصة،

وإن كانت إقامة تلك العصبة في المنزل السعيد قد استغرقت في الواقع أربعة عشر يوماً لأن أفرادها كانوا يتوقفون عن تلك اللعبة في يومي الجمعة والسبت لأسباب دينية. وكان كل من أفراد العصبة يختار الموضوع الذي يتلاءم مع نفسيته، كما أن كلام الرواة ينتقي القصة التي تعبر عن تجربته ومزاجه، فتنوعت بذلك الحكايات في موضوعاتها وشخصياتها وأزمنتها وغاياتها، إلا أن النزعة الإباحية كانت هي الغالبة عليها، وكانت هذه النزعة تزداد وضوحاً وجرأة كلما قاربت الأيام العشرة على نهايتها، فكان زمام التحفظ يفلت من يد المؤلف كلما أمعن في الكتابة وتوغل فيها، حتى هتك أخيراً جميع الأستار وأسقط جميع الأقنعة.

ولم يوفر بوكاشيو أحداً من الملوك والسوقة، والرهبان والتجار، والوجهاء وعامة الشعب، فسخر منهم جميعاً، وكشف عن عيوبهم ونقائصهم، إلا أنه ركز خصوصاً على الزواج، فعراه من كل قداسة، وتحدثت أكثر قصصه عن دهاء المرأة وغفلة الزوج، واستعداد الزوجة دائماً لخيانة زوجها إذ قلّ أن تكون هناك امرأة وفية تصدق العهد وترعى الأمانة. وكما أن المرأة ضعيفة بفطرتها أمام المغريات التي يتوسل بها العشيق للوصول إلى قلبها فإنها قوية فائقة القوة في خداع زوجها وابتكار الطرق التي توصلها إلى هدفها. فالسيدة بيرونيللا يعود زوجها إلى المنزل فجأة وهي في أحضان عشيقها، فتطلب من هذا أن يختبىء في برميل كبير في فناء المنزل، وتستقبل زوجها باللوم لأنه يتغيب عن عمله في حين تقضي هي نهارها في الغزل لاكتساب قليل من المال، فيؤكد لها أنه لم يتغيب عن عمله إلا لأمر ضروري فقد باع البرميل بخمسة دراهم إلى رجل ينتظره أمام الباب ليأخذه، فتسخر منه لأنه باعه بخمسة دراهم في حين باعته هي بستة وها إن الرجل الذي اشتراه يفحصه من داخله. فيبتهج الزوج لذلك ويخرج العشيق من مخبئه قائلاً: إن في البرميل رواسب متيبسة في داخله ولن يأخذه إلا إذا أحسن تنظيفه، فينزل الزوج إلى البرميل ويشرع في تنظيفه بينما تكمل الزوجة وعشيقها ما كانا قد بدآ به وهي لا تفتأ تطل على زوجها بين حين وآخر لتتأكد من انصرافه في عمله! والسيدة سيسموندا اتفقت مع عشيقها على أن تدلي له

من النافذة خيطاً طويلاً تربطه في أثناء نومها بإصبع قدمها، فإذا جاء لزيارتها حرك الخيط فاستيقظت وخرجت إليه، وشاهد الزوج هذا الخيط يوماً وهو يمتدّ من اصبع زوجته إلى أسفل النافذة فأدرك في الأمر خدعة ففك الخيط من إصبعها وعقده حول إصبعه، ولم يطل انتظاره حتى أقبل العشيق وجذب الخيط كالعادة، فنهض الزوج وخرج إليه مشهراً سيفه، واشتبك الرجلان في المبارزة فأفاقت الزوجة، وأدركت أن سرها قد افتضح، إلا أنها استدعت وصيفتها وكانت عليمة بسرها وأرقدتها مكانها على السرير، وطلبت منها أن تتحمل كل شيء يحدث مقابل مكافأة كبيرة وعدتها بها، فلما عاد الزوج بعد هرب العشيق انقض على الخادمة وهو يحسبها زوجته فأشبعها ضرباً وقص شعرها، وذهب إلى أهلها فجاء بهم ليشهدوا فضيحة ابنتهم، ولكنهم وجدوها تغزل خيوطها بهدوء وليس عليها أي أثر لضرب أو لكم كما أن شعرها على أتم جماله وتنسيقه، وقد أنكرت كل شيء قاله وزعمت أنه سكير يتخيل أشياء لا وجود لها، فوبخوه وهددوه أن يعود إلى مثل هذه الفعلة مرة أخرى، ومنذ ذلك الحين لم يتشاجر مع زوجته أبداً. والسيدة ليديا تحب بيروس أحد خدم زوجها، وتراوده عن نفسه فيأتي قائلاً أن سيده داهية بعيد النظر ولا بد من أن يكتشف أمرهما، فهزأت منه وقالت إنها تستطيع أن تثبت له العكس، فاشترط للموافقة على مطلبها أن تفعل ثلاثة أشياء فتقتل أحب صقور سيده إليه وأن ترسل له خصلة من شعر لحيته وأن تنتزع سناً من أسنانه، فوافقت الزوجة على ذلك وأضافت بأنها ستطارحه الغرام على مرأى من سيده لتثبت له خطأ ظنه فيه. وبادرت إلى الصقر فقتلته بحجة أنها تغار منه لما يوليه زوجها من عنايته، وداعبته ذات مرة فانتزعت خصلة من شعر لحيته، ثم أوهمته بأن في فمه رائحة كريهة مصدرها إحدى أسنانه وتطوعت لانتزاع هذه السن بنفسها. فاقتنع بيروس بمقدرتها ووافق على تنفيذ خطتها، فذهب معها ومع زوجها إلى الحديقة وكان هناك شجرة كمثري فطلب منه أن يصعد إليها ليأتيها ببعض ثمارها، فما كاد يفعل ذلك حتى أخذ يلوم سيده لأنه يطارح زوجته الغرام على مرأى منه وكان الأفضل لهما أن يفعلا ذلك في حجرة مغلقة، ودهش الزوج لقوله لأنه كان

يجلس بعيداً عن زوجته، وقالت الزوجة لا بد أن الشجرة مسحورة فلما نزل بيروس منها دعت زوجها للصعود إليها ليكتشف الحقيقة، وما كاد يفعل ذلك حتى شرعت تمارس الحب مع بيروس على مرأى من زوجها، وكلما صرخ هذا مستنكراً أكدت له أنها تجلس بعيدة عنه، فنزل عن الشجرة وقد تأكد له أن من يصعد إليها يشاهد أوهاماً وعجائب، وعمد بيروى إلى قطع الشجرة لئلا تكون سبباً في فضيحة أخرى.

ولعل أبلغ ما يصور سخرية بوكاشيو من الزواج ومن مجتمعه كله، قصة الصديقين سبينلوتشيو وزيبا، فقد أحب الأول زوجة الثاني، واكتشف هذا خيانة صديقه له، فهدد زوجته بالقتل إن لم تفعل ما يأمرها به، فأذعنت المرأة لإرادته فدعت عشيقها إلى مخدعها في غياب زوجها، ثم جاء هذا بغتة فطلبت من العشيق أن يختبىء في الصندوق ثم أقفلته وأعطت مفتاحه لزوجها ودعت بعد ذلك جارتها زوجة سبينلوتشيو لزيارتها، ثم تشاغلت في المطبخ تاركة إياها مع زوجها، فاستدرجها هذا إلى المخدع وطارحها الغرام فوق الصندوق، وجاءت زوجة زيبا بعد ذلك فقالت لها فرحة: «الآن أصبحنا يا عزيزتي سواء.. لا ظالم ولا مظلوم» ثم خرج سبينوتشيو من الصندوق فقال لزيبا: «لقد أصبحنا متساويين يا زيبا.. وخير لنا أن نظل صديقين» ويختم بوكاشيو القصة بقوله: «ومنذ ذلك الحين غدا لكل من الزوجتين زوجان، ولكل من الزوجين زوجتان، دونما غيرة أو بغضاء».

وإذا كان بوكاشيو يشك في قدسية الزواج، فإنه يؤمن إيماناً قوياً، ويعتقد بأنه صانع المعجزات، كمعجزة غاليسو الذي لم تفلح نصائح أبيه وجهود معلميه في تهذيبه، فنشأ وهو أجمل إخوته صورة وأوفاهم نمواً، على درجة من البلاهة لا سبيل إلى علاجها، حتى شاهد إيفجينيا ذات يوم، وهي نائمة في ثوب شفاف يكشف عن مفاتنها، فأحبها حباً شديداً، وما لبث حتى تفتحت طاقاته الراقدة وانطلقت مواهبه الحبيسة، فغدا من أفضل الشبان أدباً وثقافة وفروسية.

وكما يصنع الحب المعجزات فإنه يهيب إلى أعظم التضحيات، كتضحية

الأميرة جسموندا التي أحبت شاباً فقيراً كانت تلتقي به في قبو قصرها، فلما علم أبوها الملك بأمره، عمد إلى قتله وأرسل إليها قلبه في كأس من ذهب، فرفعتها إلى فمها فقبلتها، وغسلت القلب بدموعها، ثم سكبت فوقه سماً وشربته حتى الثمالة، ولما أبلغ الملك بذلك هرع إلى حيث ترقد ابنته، ولكنه وصل بعد فوات الأوان.

إلا أن الصداقة لدى بوكاشيو أرقى من الحب، وهو يروي دليلاً على ذلك قصة شاب روماني يدعى تيتو أرسله أبوه إلى أثينا ليدرس الفلسفة وأوصى به صديقاً له هناك، وكان لهذا الصديق ولد يدعى جسيبو فنشأ الشابان معاً وتعلما سوية وتوافقت أخلاقهما ومشاربهما فانعقدت بينهما صداقة وثيقة العرى. ولما توفي والد جسيبو ألح عليه أهله في أن يتزوج، فخطب فتاة ذات جمال طاغ تدعى سوفرونينا. ولكن تيتوما كاد يرى الفتاة حتى أغرم بها، فانطوى على هذا الحب صامتاً حزيناً، واشتد الصراع بين عاطفته وصداقته حتى وقع فريسة المرض، وصديقه يسهر عليه ويسأله عما به فلا يجيب، ولكن جيسبو ما زال يلح عليه ويتوسل إليه حتى اعترف له بحبه لسوفرونينا ورغبته في الموت للتخلص من هذه العاطفة الآثمة والخيانة التي يرتكبها في حق أعز صديق له. إلا أن صديقه خفف من لوعته وبرر خطيئته، وقرر التنازل له عن الفتاة التي يحب، لأن العثور على النساء أيسر من الحصول على الأصدقاء، وبما أن الفتاة خطيبته وقد دنا موعد الزفاف، فليس من الممكن إلغاء الزواج، لاسيما وأن ذلك قد يدفع بأهلها إلى أعطائها لشاب آخر وليس لتيتو نفسه، ولكن إذا تمت إجراءات العرس، وأحضرت الفتاة إلى منزل جسيبو كزوجة له، وضع هذا صديقه تيتو في فراشها كما لو كانت زوجة له، إلى أن يحين الوقت المناسب لإعلان ذلك على الملأ. فاستعاد تيتو صحته وأشرقت أساريره، وفي ليلة العرس أطفأ جسيبو الشموع وجاء إلى تيتو أن في وسعه الآن أن يذهب إلى فراشها وسألها هل تقبل أن تكون زوجة له، فردت بالإيجاب، فوضع خاتمه في إصبعها وقال لها: «وسأكون أنا زوجاً لك» وبذلك تم زواجهما وهي تحسب أنها في أحضان جسيبو. ومرت على ذلك شهور، ثم توفي والد تيتو وبات عليه

أن يسافر إلى روما لإدارة أعماله، ولم يعد من الممكن إخفاء السر عن سوفرونينا، فاجتمع بها الصديقان ورويا لها ما حدث، فغضبت لذلك وجاراها أهلها في الغضب، ولكنهم لم يجدوا بداً من القبول بالأمر الواقع، فسافرت الفتاة معه على أنها زوجة له، وبقي جسيبو في أثينا يعاني من ازدراء الناس له على فعلته، فعاش منبوذاً محتقراً ثم حكم عليه بالنفي، فسافر إلى روما في حال مزرية من الفاقة، وسأل هناك عن تيتو فعلم أنه قد تبوأ مركزاً مرموقاً في الدولة، فوقف أمام منزله وهو لا يجرؤ على أن يطرقه، ثم مر به تيتو فلم يعرفه، ولكن جسيبو ظن أن صديقه قد عرفه وتجاهله لما يرتدي من أسمال بالية، وهام على وجهه في الطرقات حتى وجد خاناً حقيراً فتسلل إليه ونام في زاوية منه، وإذا بلصين يدخلان إلى الخان ويأخذان في اقتسام ما سرقاه ثم يختلفان على القسمة فيقتل أحدهما الآخر ويهرب. وكان جسيبو قد ضاق بالحياة ولكنه تهيب الانتحار، فرأى أن اتهامه بهذه الجريمة سيفضي به إلى الموت الذي ينشد. ولما شوهد في اليوم التالي إلى جانب القتيل اتهم بقتله فلم ينكر التهمة وحكم القاضي بأن يصلب. وكان تيتو يمر بساحة القضاء مصادقة فتفرس في وجه المتهم وعرف أنه جسيبو وأيقن بأن صديقه قد اعترف بالجريمة ليأسه وبؤسه، فتقدم معلناً أن المتهم بريء لأنه هو القاتل. وقال تيتو إن هذا المتهم غريب وقد وجد إلى جانب القتيل ولا سلاح معه فلماذا يقتل رجلاً لا يعرفه وأين السلاح الذي اقترف به جريمته. وبينما كان القاضي حائراً بين هذين الرجلين اللذين يناشده كل منها بأن يقضي بصلبه، برز من بين الحاضرين القاتل الحقيقي الذي استيقظ أمام هذا المشهد واعترف بجريمته وروى وقائعها بشكل لا يحتمل الشك، فأطلق سراح الصديقين. ورحب تيتو بجسيبو في منزله، واقتسم معه كل ما يملك وزف إليه أخته فولفيا التي لا تقل حسناً عن سوفرونينا، وعاش الجميع في سعادة وارفة.

وفي معرض الحديث عن الصداقة، يروي بوكاشيو قصة عن صلاح الدين الأيوبي، الذي بلغه أن فردريك الأول يدعو إلى حرب صليبية عامة يشترك فيها جميع الأمراء المسيحيين لاستعادة بيت المقدس، فاعتزم القيام برحلة سرية إلى

البلاد الأوروبية، للاطلاع على الاستعدادات التي تقوم بها كي يتخذ ما يجب لها من وسائل الدفاع. واصطحب معه اثنين من أعوانه المخلصين وثلاثة من الخدم. وفي أثناء تجواله ومن معه في أوروبا وهم في زي تجار من قبرص، التقى بهم سيد من بافيا يدعى توريللو ديستريا، فأدرك أنهم غير ما يدعون لما يبدو عليهم علائم النبل، ولأن كبيرهم صلاح الدين كان يتحدث باللاتينية حديثاً يدل على سعة معارفه وعلو مقامه، فأكرمهم غاية الإكرام وتفنن في الحفاوة بهم، وأهدت زوجته كلا منهم عباءة ثمينة وثوبين أحدهم مبطن بالحرير والآخر مبطن بالفراء، كما خلعت على خدمهم خلعاً مناسبة، فترك ذلك أعمق الأثر في نفوسهم، ورحل صلاح الدين وقد عقد العزم على أن يكافئه أحسن مكافأة إذا لم تحل الحرب المقبلة من دون ذلك. والواقع أن الحرب ما لبثت حتى اشتعلت، وكان على السيد توريللو أن يرحل مع القوات الصليبية إلى الديار المقدسة، فودع، زوجته وأخذ منها وعداً بأنه إذا لم يصلها نبأ عن وجوده على قيد الحياة، أن لا تتزوج إلا بعد عام واحد وشهر واحد ويوم واحد. فوعدته المرأة بأن تبقى وفية له محافظة على ذكراه، وإذا اضطرها أهلها للزواج فلن تفعل ذلك إلا بعد انقضاء الوقت الذي حدده لها. ثم أعطته خاتمها ليتذكرها دائماً. وكان في عداد القوات الصليبية مقاتل آخر يدعى توريللو أقل شهرة وأدنى مكانة منه، فسقط هذا قتيلاً، وتبادر إلى الأذهان أن توريللو ديستريا هو الذي قتل. ووصلت الأنباء إلى بافيا مؤكدة موته، وزعم قادمون من القدس أنهم شهدوا جنازته ودفته. وتقدم أحد أسياد المدينة لخطبة الزوجة، وأصر أهلها على القبول به زوجاً لها، فأذعنت لمشيئتهم ولكنها حددت موعد الزواج بعد وصول نبأ مقتله بسنة واحدة وشهر واحد ويوم واحد. وكان توريللو قد أرسل إلى زوجته وعمه مطران بافيا رسالتين يطمئنهما فيها على سلامته ثم وقع أسيراً مع بقية أفراد الحملة، وعلم وهو في الأسر أن الرسول الذي حمله الرسالتين قد غرقت سفينته، فاستولى عليه القلق لما قد تقدم عليه الزوجة حين يبلغها نبأ موته. وكانت حاشية صلاح الدين قد عهدت إلى توريللو العناية بصقورها لخبرته في ذلك، فشاهد السلطان وعرفه وأخذه إلى منزله وأوقفه أمام خزانة

ثيابه، وسأنه إن كان بين هذه الثياب ثوب يعرفه، فقال إن بينها اثنين يشبهان أثواباً كانت زوجته قد أهدتها لثلاثة من التجار زاروه في داره، فأجابه صلاح الدين بأنه أحد أولئك الثلاثة، وتقدم منه فعانقه وخلع عليه ثياباً ملكية. وقدمه إلى كبار رجال دولته، وطلب منهم تنفيذ كل ما يطلبه منهم. ولكن توريللو ظل حزيناً منطوياً على نفسه، فسأله صلاح الدين عما به فروى له ما يقلقه وقال إن المهلة التي حددها لزوجته لم يبق منها سوى يوم واحد. فابتسم السلطان وأكد له أنه سيكون في بافيا قبل انتهاء المهلة. ثم ألبسه حلة مذهبة وسقاه مخدراً ووضعه على سرير كبير وملأ جنبات السرير بالحلى والمجوهرات والنقود الذهبية، وأمر أحد أبناء الجن الذين يأتمرون بأمره بأن يطير به إلى بافيا فلما ذهب فعل المخدر أفاق توريللو ليجد نفسه في كنيسة بافيا، وذعر عمه لمرآه ولكنه ناداه باسمه وقص عليه ما حدث له وسأله عن زوجته، فأجاب أنها في حفلة عرسها وستزف إلى زوجها الجديد في تلك الليلة، فبادر للذهاب إلى الحفلة ولفت توريللو الأنظار بحلته المذهبة وقدم إلى المدعوين كرسول للسلطان إلى ملك فرنسا، وجلس قبالة زوجته فأخذت ترمقه باهتمام من دون أن تعرفه لأن لحيته الكثيفة كانت تخفي ملامحه، ولما شاهد حزنها وأيقن بأنها لا تقبل الزواج إلا مرغمة، نادى أحد الخدم وقال له أن يبلغ العروس إن من عادة قومه أن ترحب العروس بالضيف بأن ترسل إليه كأسها فإذا شرب منها عادت هي فشربت ما تبقى منها، فجاءت بكأس ذهبية وملأتها خمراً وأرسلتها إليه، فشرب معظمها ووضع خاتمها في بقية الكأس وأعادها إليها، فلما همت بأن ترفعها إلى فمها شاهدت الخاتم فأخرجته وتفرست فيه فعرفت أنه خاتمها وأخذت تتفرس في الرجل الغريب ثم صرخت فرحة: هذا زوجي. . . إنه توريللو حقاً! وهرعت إليه فعانقته وتحول العرس إلى احتفال بعودته وسلامته ولاسيما حين أخذ ينثر الذهب يميناً وشمالاً ويوزع المجوهرات على كبار المدعوين وفي مقدمتهم العريس الذي كاد ينتزع منه زوجته.

ويعلق بوكاشيو على هذه القصة بقوله: «إذا حال عجزنا ونقصنا عن أن نحظى بمودة صديق فليسعدنا الأمل بأن تلقى الصداقة الجزاء الذي تستحق».

سرفانتس العظيم

كان فيكتور هيغو يعتقد بأن الستة الكبار الذين أنشأوا الإنسانية هم دانتي وشكسبير وسرفانتس وموليير وغوته وبلزاك، وقد تخيل حواراً جرى بينه وبين روح شكسبير فسأله عما إذا كان قد التقى بسرفانتس في العالم الآخر، لاسيما وأنهما قد توفيا في يوم واحد، ولا بد أنهما تقابلا حيث ذهبا، فأجاب شكسبير: «عندما يموت الإنسان يأخذ فجأة عمر كل الموتى، أي الخلود. ليس في السنوات أول القادمين أو آخرهم. للجميع حياة ثانية. وتدوم هذه الثانية مائة مليون عام. وسؤال الميت منذ متى جئت إلى السماء، يتساوى مع سؤال الشعاع منذ متى جئت إلى الشمس. فالروح أخت لا تكبرها أخت. ما اللانهاية بالأخت الكبرى للحب وما الخلود بالأخ الأكبر للعبقرية. كل القلوب العظيمة توأم. وللفكرة أبناء لا أحفاد. إذا سألت الشعاع عن عمره قال لك: سل البرق. وإذا سألت البرق قال لك: سل الشعاع. رأيت سرفانتس مرة واحدة، وحياني وحدثني على النحو الآتي: ما رأيك في دون كيخوته أيها الشاعر؟ وكان موليير ماراً فقال: هو دون جوان. وقلت أنا: هو هاملت. فدون كيخوته يشك، ودون جوان يشك، وهاملت يشك، ودون كيخوته يبحث، وهاملت يبحث، ودون جوان يبحث. ودون كيخوته يبكي، ودون جوان يضحك، وهاملت يبتسم. وثلاثتهم يتعذبون في الجمجمة التي يمسك بها هاملت دمعتك يا سرفانتس وضحكتك يا موليير. إن هيكل الشك يلقي ظلاله تحت جمال مؤلفاتنا نحن الثلاثة، نحن نصنع الدراما والله ينهيها. انظروا إلى السماء إنها الفصل الأخير، وما حجر القبر الذي يفتح على أرواحنا، إلا ستار يرفع ويرينا الخاتمة. صفق يا سرفانتس. صفق يا موليير... صفق يا شكسبير، فلقد أضاء الله خشبة المسرح!».

وقد اختلف النقاد في المعاني التي تمثلها «**دون كيخوته**» والقيم التي تنطوي عليها، فهناك من اعتبرها نقداً لاذعاً لأوضاع المجتمع الإسباني في القرن السادس عشر وشخصيات معينة في العهد الذي عاش فيه سرفانتس كالملك شارل الخامس والملك فيليب الثاني. ومنهم من رأى أن صراع دون كيخوته وتطلعه إلى المثل الأعلى إنما هو صراع سرفانتس نفسه وإن كان قد أضفى عليه من الابتسام والسخرية الرقيقة ستاراً لا يحجب ما تحته من جد وصرامة. ورأى آخرون أن الرواية تهزأ بالبطولة الزائفة وتسخر بمن تستهويهم المثل العليا التي تصورها قصص الفروسية الخيالية لأنها مثل لا مجال لها في الحياة العملية. وكان غوركي يضعها في مصاف خيرة روائع الأدب العالمي ويقول: «إنها تبدو لنا عصارة لفكر هذا العالم وإحسانه ودموعه الحرة في حلة مدهشة من الصور والكلمات» ويرى أن دون كيخوته وسانشو بانسا من أقرب النماذج البشرية إلى الحياة، تلك النماذج التي وصفها جميع كتاب العصور والشعوب.

والواقع أن هذه الرواية الفريدة تمثل الصراع في النفس الإنسانية منذ الأزل، هذا الصراع يتمثل بين المثالية والواقعية، وبين الخيال والحقيقة، وبين حب المغامرة والسكون إلى الدعة، كما يتجلى في الشخصيتين الرئيستين في الكتاب: شخصية دون كيخوته البطل الحالم الواهم الباحث عن المثل الأعلى والمتحمس لنجدة المستضعفين، وشخصية تابعه سانشو الفلاح القانع المطمئن الراضي بما أعطته الحياة الوادعة فهو رجل عملي متزن يؤثر السلم ويمثل الواقع ولا يريد أن يتجاوزه. وتكمن مأساة دون كيخوته في أن هذا الفارس التائه يتمسك بمفاهيم القرون الوسطى، وما تمثله من فروسية وبطولة ونبالة، في عصر لم يعد لهذه المفاهيم وجود فيه، فكان لا بد لآخر الفرسان الذي يحمل أفكار عصر زائل في عصر جديد له مفاهيم جديدة وحقائق جديدة، من أن يغدو مضحكة للناس! ولكن هل هو مضحك في حقيقته؟ الواقع أنه على الرغم من حماقاته وما يحمله من أفكار بائدة وأوهام جعلته يحارب عمالقة وسحرة موهومين، كان إنساناً أصيلاً طيب الخلق شريف النفس مناضلاً عن الحق ومدافعاً عن المظلومين.

وإذا استبعدنا من الرواية كل فكرة هادفة، ولم نبحث وراء النص عن دلالات بعيدة ورموز وطنية وإنسانية، رأيناها مثالاً رائعاً للأدب الفكاهي بجميع ألوانه وفنونه . ، بما تنطوي عليه من مفارقات مضحكة، وتناقض في المواقف، ونقد ساخر، ونكات بارعة. ولعلها الرواية العالمية الوحيدة التي تستهوي الصغار والكبار ويستمتع بها الخاصة والعامة على السواء.

ولد ميغويل سرفانتس سنة ١٥٤٧ في مدينة القلعة الحمراء (الكالا دي هناريس) بمقاطعة قشتالة الجديدة من أسرة محدودة الثراء، وتلقى فيها العلوم الابتدائية، وكان أبوه دون رودريغو طبيباً غير موفق في مهنته، فرحل سنة ١٥٦٣ إلى مدينة إشبيلية بحثاً عن وضع أفضل فلم يكن فيها أكثر حظاً، ولكنه ألحق ميغويل مع ذلك بمدرسة لليسوعيين تلقى فيها بعض الدروس العليا. ولم يكد الفتى يبلغ سن العشرين من عمره حتى انتقل الأب العاثر الحظ إلى مدريد، حيث اشتركت الروح السائدة فيها، والقدوة التي أخذها عن أعلام الأدب والفن فيها، وجزالة اللغة الإسبانية التي توحي إلى الناشئين بسهولة قرض الشعر، في تفتح ميوله الأدبية في براعم القصة وزهر القصيد.

ولما توفيت الملكة ايزابيل دي فالوا وهي في الثانية والعشرين من عمرها، رثاها ميغويل بقصيدة لاقت استحساناً في البلاط وأثنى عليها أستاذه لوبيت دي اوبوس، فلما زار مدريد الأمير الإيطالي أكوافيفا أراغون الذي أصبح فيما بعد كردينالاً، أبدى رغبته في دعوة بعض المواهب الشابة إلى بلاطه، فنصحه دي أوبوس بأن يصطحب معه ميغويل سرفانتس، ورافق الشاب الأمير وهو لا يشك في أن القدر قد فتح له أبواب الثروة والمجد.

إلا أن إقامة الأديب الشاب في بلاط الأمير لم تطل، إذ ضاق بالحياة الرتيبة فيه بين عدد من الشبان الطامحين الذين يتسابقون إلى خدمة الأمير. وما لبث حتى التحق سنة ١٥٦٩ بالجيش الإسباني المرابط في إيطاليا تحت إمرة القائد ميغويل دي مونكادا لاعتقاده بأنه سيجد في الحرب الدائرة بين الدول الأوروبية والدولة العثمانية مسرحاً جديراً بنبله وشجاعته.

وقد أتاح له ذلك التنقل طوال سنتين بين مختلف المدن الإيطالية والإطلاع على روائع الأدب والفن فيها. ثم أبحر على ظهر السفينة «لاماركيزا» لمقاتلة الأتراك في قبرص، وكانت هذه السفينة واحدة من ثلاثمائة قطعة بحرية حشدتها إسبانيا والبابا بيوس الخامس وجمهورية البندقية بقيادة دون جوان دي أوستريا شقيق الملك فيليب الثاني. وقد أبدى ميغويل شجاعة وإقداماً كبيرين في معركة ليبانتو، وواصل القتال على الرغم من الجراح الثلاثة التي أصيب بها، إلا أن الجرح الذي أصابه في يده اليسرى عطب ذراعه فظل طوال حياته غير قادر على استعمالها، وقد نوه بهذه الذكرى في مؤلفاته غير مرة، واعتبر هذه العاهة «ثمناً تافهاً لشرف اشتراكه في أول عمل عظيم نازعت فيه قوى المسيحية سيادة الترك البحرية بنجاح». وكان يفتخر دائماً بخوض هذه المعركة التي «أزالت عن عيون الناس الغشاوة التي جعلتهم يعتقدون بأن الأتراك لا يمكن أن يهزموا في البحر».

ونقل سرفانتس بعد المعركة إلى أحد مستشفيات مسينا، وزيد راتبه، ولم يكد يشفى من جراحه حتى عاد إلى الجيش مرة ثانية شأن الكثيرين منْ الشبان النبلاء الشغوفين بشرف الجندية ولذة مخاطرها. ولكن عهد الانتصارات كان قد ولى، ولا سيما بعد أن عقدت البندقية صلحاً منفرداً مع تركيا تخلت لها بموجبها عن جزيرة قبرص التي تألّفت الرابطة من أجل حمايتها.

وبعد أن قضى الشاب شتاء سعيداً في نابولي المدينة التي أحبها وكانت له فيها مغامرات غرامية عابثة، قرر العودة إلى إسبانيا مع أخيه رودريغو الذي كان قد التحق بالجيش أيضاً، واستطاع أن يحصل على عدد من رسائل التوصية ومنها رسالة من دون جوان إلى أخيه الملك فيليب الثاني يلتمس منه فيها أن يقلده قيادة كتيبة لما أبداه من جرأة وشجاعة. وكان ميغويل سرفانتس سعيداً في رحلة العودة التي بدأت في العشرين من شهر أيلول ـ سبتمبر ١٥٧٥ على ظهر السفينة «صول» التي تواكبها سفينتان أخريان هما «لا مندوثا» و«إيغيرا» ممتلىء النفس بالأحلام، ليقينه بأن ما قام به من أعمال بطولية وما يحمل من رسائل

التوصية، كفيل بأن يحقق مطامحه ويعطيه ما يستحقه من مجد. ولكن السفن الإسبانية الثلاث ما لبثت أن حوصرت من قبل القرصان الألباني الشهير أرناؤوط مامي الذي استولى عليها بعد معركة ضارية وأسر من فيها وقيدهم بالسلاسل، ثم تقاسمهم مع رجاله فكان ميغويل سرفانتس من نصيب دالي مالي شقيق أرناؤوط وهو أشد القراصنة قسوة وبطشاً، وظن هذا أنه قد وقع على رجل ذي خطر للرسائل التي وجدت معه فشدد الحراسة عليه ليظفر بفدية كبيرة مقابل فكاكه.

شق على سرفانتس هذا المصير الذي ساقته إليه الأقدار، وكان لكل من زعماء القراصنة سجنه الخاص في الجزائر، فما كاد ميغويل يزج في سجن دالي مالي الشبيه بالكهف، حتى بدأ يضع خطة للهرب مع رفاقه الأرقاء، وكادت هذه الخطة تنجح لولا أن الدليل الذي استأجروه ليقودهم إلى وهران قد التبست عليه معالم الطريق، فعادوا أدراجهم إلى السجن، ووقف النخاس يزمجر بصوته وسوطه متوعداً أولئك المساكين بأقسى العقاب. وإذا بسرفانتس يبرز من بين صفوفهم ليعلن جنون النخاس ويهم بقتله. ولكنه تذكر الثمن الموفور الذي يستطيع أن يبيع به شاباً يتمتع بهذه الصلابة والقوة، فيكتفي بإلهاب ظهره بسوطه، ثم يثقل قيده ويشدد الرقابة عليه.

وقد أرسل الكاتب الأسير رسالة إلى أهله مع بعض الأسرى الذين أطلق سراحهم مقابل الفدية التي طلبت منهم، ففرح الأهل بالرسالة التي بشرتهم بأن ولديهم اللذين انقطعت أخبارهما لا يزالان على قيد الحياة، وجمعوا بشق النفس مبلغاً صغيراً من المال سلموه إلى الراهب المختص بفداء الأسرى، ولكن دالي مالي رفض الإفراج عن الأخوين مقابل هذا المبلغ الهزيل، ووافق ميغويل حينئذ على أن يكتفي بإطلاق سراح أخيه، وحمل الأخ رسائل إلى بعض النافذين في إسبانيا لإرسال سفينة لنقل الأسرى الذين كانوا يستعدون للاختباء في منزل على الشاطىء في انتظار إشارة معينة لينتقلوا إلى السفينة، وجاءت السفينة فعلاً وكادت الخطة تنجح، لولا أن بعض الأهلين شاهدوا الأسرى

والبحارة فانطلقوا ينقلون النبأ إلى المدينة، وتولى البحارة الذعر فعادوا إلى سفينتهم فابتعدوا عن الشاطىء، وهلعت قلوب الأسرى لما ينتظرهم من عقاب رهيب، ولكن ميغويل طمأنهم بقوله إنه هو المسؤول عن محاولة الهرب، فسيق الأسرى إلى السجن واقتيد سرفانتس بالسلاسل إلى قصر الوالي حسن باشا وهو لا يشك في أنه سيعدم، إلا أن الوالي اشتراه من دالي مالي بخمسمائة دينار وأمر باعتقاله في سجنه الخاص ليكون تحت مراقبته فيأمن جانبه ويتقي خطره، وكان هذا السجن أرهب سجون الجزائر، وقد شاهد فيه ألواناً غريبة من تعذيب الأسرى وإعدام عدد منهم.

ويطول الزمن على أسر سرفانتس، وتمتلىء نفسه بالعذاب، عذابه وعذاب رفاقه الأرقاء، فيضع خطة ثالثة للهرب اعتماداً على صديق مسلم وثق به وسلمه رسالة إلى دون مارتين دي قرطبة حاكم وهران يناشده فيها إرسال رجال ذوي خبرة لمساعدته على الفرار، فقبض على حامل الرسالة وأعدم على الخازوق من دون أن يشي بسرفانتس ويكشف سره، وكان في الجزائر رجل من غرناطة يدعى خيرون وقد اعتنق الإسلام وأطلق على نفسه اسم عبد الرحمن ثم ندم على فعلته وقرر العودة إلى المسيحية، فاتفق معه على أن يشتري أحد التجار الإسبانيين المحسنين في الجزائر سفينة باسمه يزعم أنها تعد للقيام بأعمال القرصنة تحت قيادته فلا يثير شكاً باعتباره من المسلمين، ثم يستخدمها سرفانتس وعدد من الأسرى للهرب. وقد تم شراء السفينة وإعدادها لتنفيذ تلك الخطة وتهيأ الأسرى للانطلاق إليها، وإذا بوشاية يقوم بها راهب مزيف يدعى خوان بلانكو تفضح تلك العملية، وهرب سرفانتس لأن عقابه هذه المرة سيكون رهيباً، والتجأ إلى بيت صديق له، فأعلن الوالي أن كل من يساعده على الهرب أو الاختباء سيكون جزاءه الموت، وضنا بحياة أصدقائه سلم سرفانتس نفسه للوالي الذي هدده بالشنق إن لم يبح بأسماء شركائه وكل من ساعده في هذه المؤامرة، ولكن سرفانتس رفض وحبل المشنقة في رقبته أن يتفوه باسم واحد ممن شاركوه أو أعانوه، وكان حسن باشا شغوفاً بالفروسية والشجاعة، فازداد إعجاراً بالأسير المقدام وأمر بالكف عن تعذيبه والإبقاء على حياته.

كانت قد انفرطت من سلسلة الزمن خمسة أعوام، عانى سرفانتس في خلالها من عذاب الأسر هولاً شديداً متعاظماً عبر عنه في قصة «**الأسير**» التي ألحقت برواية «**دون كيخوته**» وهي تمتاز بحيوية فائقة. وقد أضاف القدر إلى آلام السجن أهوال الطاعون الذي انتشر في الجزائر وكان يقضي كل يوم على عشرات الأسرى الذين يبلغ عددهم خمسة وعشرين ألفاً. وكاد سرفانتس يستسلم لليأس ويعد نفسه للموت الذي ينتظره بين لحظة وأخرى، حين وصل إلى الجزائر راهب يدعى خوان خيل للسعي في فكاك الأسرى، وقد طلب الوالي عن سرفانتس فدية قدرها ألف دينار، ولما لم يستطع الراهب تقديم هذا المبلغ، نقل حسن باشا الأسير إلى إحدى السفن مع عبيده الآخرين لأنه منتقل مع أفراد أسرته إلى الآستانة. وبينما كان سرفانتس مقيداً بسلسلة من الحديد في إحد جوانب السفينة، وإذا بالراهب يأتي لتحريره لأن الوالي وافق أخيراً على افتدائه بخمسمائة دينار وهو المبلغ الذي اشتراه به.

وعلم سرفانتس قبل عودته إلى بلاده أن خوان بلانكو ذلك الراهب المزيف الذي وشى به، ما كاد يعلم بتحريره حتى أخذ يطعن فيه لدى ممثلي السلطة الإسبانية، زاعماً أنه قد ارتكب في أثناء أسره عدداً من الجرائم المنكرة، فاستحصل على بيان من الراهب خوان خيل يكذب تلك المزاعم، ورحل إلى وطنه في خريف ١٥٨٠ بعد غياب طويل الأمد حافل بمخاطر الحرب وآلام الأسر، وكان قد غادره وهو في سن الحادية والعشرين فعاد إليه وهو في الثالثة والثلاثين، إلا أنه كان على يقين بأن مواطنيه سيقدرون تضحياته ويكافئونه بالمجد الذي يستحق.

ولكن أوهام المجد أخذت تتضاءل مع الأيام، ووجد نفسه مضطراً من أجل تأمين قوته إلى القيام بوظائف متواضعة، ثم عمل محصلاً للدولة يجمع لها مواد التموين التي يحتاج إليها الأسطول الإسباني الضخم الذي عرف باسم الأرمادا، فطاف العديد من مدن إسبانيا وقراها لهذا الغرض ومع أن هذه الوظيفة لم تكن تليق بأديب مثله فإنها قد أفضت به إلى السجن مرتين مرة في سنة

١٥٩٧ وأخرى في سنة ١٦٠٢ لاتهامه بتبديد أموال الدولة نتيجة لإهماله وسوء تصرفه. ثم سجن مرة ثالثة في سنة ١٦٠٥ لأن أحد النبلاء قتل أمام منزله فاعتقل قيد التحقيق. ويقال إنه فكر في كتابة «دون كيخوته» وهو في سجن أشبيلية، وقد أشار إلى ذلك في مقدمة الرواية إشارة عابرة. وقد أتقن في السجن لغة قطاع الطرق وسمع اعترافات القتلة، ومن وراء القضبان الحديدية كان يتذكر دروب الأندلس المليئة بالغبار، حيث تعرف إلى جميع أصناف البشر من موسيقيين متجولين، ورهبان زينوا أصابعهم بالخواتم فوق قفازات من المخمل، ومغاربة منفيين عادوا متنكرين بهيئة مسيحيين، وفتيات مغامرات يلبسن ثياب الرجال. ولا ريب في أنه كان يستعرض في ليالي الوحدة والوحشة ذكريات حياته والأمجاد التي حلم بها وناضل من أجلها، وذراعه التي عطبت في خلالها، والآلام التي قاساها والأهوال التي عاناها، فإذا بكل ذلك ينتهي به إلى غياهب السجن ظلماً وعقوقاً، فيرى أنه كان أشبه بفارس تائه يحارب طواحين الهواء!

كان سرفانتس في أثناء تجوله بين مدينة وأخرى، وتنقله من وظيفة إلى وظيفة، لا يفتأ ينظم الشعر ويكتب القصة. وقد كتب قصته الأولى «لاغالاتيا» في لشبونة حيث أغرم بسيدة برتغالية تدعى آنادي فرانكا رزقت منه ابنة غير شرعية. وتدور هذه القصة حول حب اثنين من الرعاة للاغالاتيا فينظمان فيها الشعر ويتسمعان إلى حكايات رفقائهما عن مغامرات الحب بين الرعاة والراعيات، ثم يزوران أحد الرهبان فيروي لهما قصة حبه التي انتهت به إلى الدير. وقد كتب هذه القصة ليعبر فيها عن حبه لآنا ولكن ما كادت تصدر حتى كان قد تزوج سيدة أخرى تدعى كاتالينا سالازار تصغره بثمانية عشرة عاماً وتملك بعض الأرزاق، إذ بينما كانت كاتالينا تحب الاستقرار في قريتها إسكيفيا والحياة بين كرومها ودجاجاتها، كان سرفانتس يحب السفر والتجوال ويؤثر الإقامة في مدريد الصاخبة، فظل مدة من الزمن يتنقل بين مدريد وإسكيفيا ثم انقطع عن زيارتها سنوات عديدة تاركاً زوجته الصبية بمفردها، وقد ظلت هذه المرأة على حبها له ووفائها لعهده، واضطرت بعد سنوات من الهجر للانتقال

إلى مدينة الوليد لتعيش معه ومع شقيقته كما تبنت ابنته غير الشرعية وقامت على تربيتها والعناية بها.

وفي مدريد مثلت بعض مسرحياته، ولعل أهمها مسرحيته التاريخية **«نومانسيا»** وهي تصور كفاح هذه المدينة الإسبانية من أجل الحرية، فقد عرف أهلها أن الرومان سيغزونهم بقوة لا يستطيعون مقاومتها ففضلوا الموت على حياة الاستعباد والذل، فتناحروا فقتل بعضهم بعضاً إلا واحداً أحب الحياة وجبن عن قتل نفسه أو دعوة أحد مواطنيه لقتله فلاذ ببرج عال ليعتصم به. ولما دخل الرومان نومانسيا لم يجدوا فيها من يأسرونه ويسوقونه لعرضه في شوارع روما رمزاً لانتصارهم سوى ذلك الجبان المعتصم بالبرج. ولما علم هذا أن الغزاة لن يبطشوا به بل سيأخذونه أسيراً ويجعلون منه مثلاً على إذلال نومانسيا، استيقظت وطنيته وشجاعته فخطب في الجند الروماني وحدثهم عن وطنية النومانسيين الذين آثروا الموت على الاستسلام لهم، وقال: إن الأسر الذي ينتظره إذا أبقى على حياة جسده، فإنه سيتلف نفسه ويلحق العار بوطنه، وبادر إلى إلقاء نفسه من أعلى البرج فسقط جثة هامدة وهزمت نومانسيا بذلك هازميها.

وتعددت كتبه بعد ذلك ومنها مجموعة قصصية بعنوان **«جيتانيلا»** صور فيها البوهيميين الذين ينتشرون في كثير من أنحاء أوروبا، ويعيشون منعزلين عن جميع الشعوب وفي عداء مستمر مع الحضارة، وهو يقول على لسان كبيرهم معبراً عن شرعتهم العجيبة: «نحن أسياد الحقول والغابات والهضاب والسواقي، نحطم الأشجار لنتدفأ، ونسلب الثمار والخضار من الجنائن والبساتين، والعنب من الكروم، ونشرب من أصفى الغدران. من الأنهار نأخذ أسماكنا، ومن الحدائق نقتنص الطيور. إننا نستريح في ظل الصخور، ونلوذ بالكهوف لننام. لا فرق عندنا بين لا ونعم. وليس النسر أو الصقر بأسرع منا إلى الفريسة. وما جعلنا يوماً لكلمة الشرف أو المجد أي اهتمام. هكذا نعيش في الفلاة، أحراراً من كل قيد، لا نخضع لشرعة الناس التي تقضي عليهم بأن يكونوا إما كهاناً أو جنوداً!».

وثمة مجموعة أخرى من القصص بعنوان **«القصص المثالية»** عرض فيها

حكايات اللصوص والمغامرين، وقد شبهها النقاد بقصص بوكاشيو، ويتحدث المؤلف في إحدى هذه القصص عن جماعة من الناس اتخذوا التسول حرفة لهم، وجعلوا له نظاماً، ووزعوا على أنفسهم بحسب هذا النظام مختلف الرتب والألقاب.

ولكن طرفة سرفانتس هي «**دون كيخوته**» بل إن هذه الرواية العظيمة إحدى روائع الأدب العالمي ومفاخر الأدب الإسباني. ومع الأسف أن مؤلف هذا الكتاب الخالد لم يلاق من معاصريه غير الجفاء والقطيعة والعقوق، فعاش معذباً بائساً وقضى كئيباً مضطهداً.

ويؤكد الناقدون أن فيليب الثالث الذي ظهرت الرواية في عهده، قد قرأ «**دون كيخوته**» فلم يفهم مغزاها الاجتماعي العميق، ولكنه ضحك كثيراً لمغامرات فارس المانتشا، على الرغم من مزاجه السوداوي وكآبته الدائمة وطابع الوقار المفرط الذي ورثه عن جده وأبيه. وبينما كان فيليب الثالث يضحك ويستغرق في الضحك وهو يطالع «**دون كيخوته**» مرة بعد أخرى، كان سرفانتس يرزح في عاصمة إسبانيا تحت وطأة المرض والبؤس، وعلى مرأى الملك الذي لولاه لما عرف الضحك.

وقد ترجمت مغامرات فارس المانتشا إلى جميع اللغات، وعلى الرغم من أن مضحكات ذلك العصر قد حلت محلها مضحكات أخرى، فإن الكتاب الذي صورها بروعة وإعجاز لا يزال يثير اهتمام المفكرين في جميع البلدان وجميع العصور، لأنه صدر عن الطبيعة البشرية فصورها ببراعة وصدق، وعبر من خلال مأساة فرد من الناس من مأساة عصر بأسره.

ويقترن في هذه الرواية الخيال المجنون المتمثل في دون كيخوته، بالواقعية البسيطة الممثلة في سائسه شانشو بانسا، الأول يرى في الأشياء العادية عجائب ومفاتن وخوارق، والثاني مع احترامه لأوهام معلمه، لا يرى الأشياء إلا من جانبها الواقعي الملموس. وليس شيء في هذه الرواية، حتى فرس بطلنا وحمار خادمه سانشو، إلا يمثل التناقض المضحك دائماً، والمثير دائماً،

والمفعم في الوقت نفسه بالفلسفة والحكمة، مع سمو في الخيال، ودقة في التعبير، ومهارة في سرد الحوادث، وفكاهة رائعة وسخرية لاذعة، لا يرتفع إلى مستواها إلا عبقري متقد الذكاء نافذ البصيرة.

غير أن دون كيخوته غريب ونبيل إذا جاز هذا التعبير، ويرى بعض العلماء أن جنونه ضرب من المنومانيا أو الجنون الموضعي الذي انتشر في أوروبا في أعقاب الحروب الصليبية، والحق أن في مأساته رمزاً لغروب العصر الاقطاعي بما انطوى عليه جانبه الإيجابي من فروسية ونبالة.

كان دون كيخوته نبيلاً طيب القلب هادىء الخلق طويل القامة هزيل البنية واسع الثقافة، يعشق الصيد ويتمتع باحترام مواطنيه في إحدى قرى المانتشا. وكان قد جاوز العقد الرابع حين حط به الدهر فلم يبق له من مال وعقار غير منزل متهدم أقام فيه بين ذكريات الماضي ومخلفات السلف، منصرفاً إلى مطالعة كتب المغامرات وقصص الفروسية وأخبار الأبطال المغاوير، فباع الكثير مما يملك واشترى بها تلك المؤلفات الباهظة الثمن، وعكف على قراءتها ليلاً ونهاراً، وكثيراً ما كان يقضي أياماً عديدة وهو منصرف إليها بكليته من دون أن ينام أو يأكل، فامتلأت مخيلته بكل ما قرأ من ضروب المعارك والعواطف والمشاعر والخوارق وتوهم أنها الحقيقة التي يعشقها ولا حقيقة سواها. فقال الناس إنه جنّ، وهتفت نسيبته: «لتكن ملعونة تلك الكتب فقد أفسدت أجمل فكر عرفته المانتشا بأسرها».

ورأى دون كيخوته أن من واجبه تكريماً لشرفه وشرف دولته، أن يتأثر خطى أولئك الفرسان الجوالين الذين قرأ سيرهم، فيجوب الأرض بفرسه وأسلحته باحثاً عن المظلومين لحمايتهم ورفع ظلامتهم، مدافعاً عن الأخيار مطارداً الظالمين والأشرار. فتسمى باسم دون كيخوته دي لامانتشا وكان يدعى الونزو كيخانا، وبحث في قبو منزله فوجد بقايا درع وخوذة وسيف علاها الصدأ، فرممها وصقلها ثم تقلدها، وامتطى فرساً ضامرة دعاها باسم روزنيانتي واختار سائساً له وحاملاً لسلاحه سماه سانشو بانسا شأن أتباع الفرسان في

قصص الفروسية، ووعده بأن يعينه حاكماً على الجزيرة الأولى التي يتاح له غزوها وافتتاحها ويمنحه لقب دوق، وخرج إلى العالم حاملاً على ظهره تراث الماضي الذي لا وجود له، وأخذ يتنقل من مكان إلى آخر وعلى كتفه رمحه المديد، لإعلان الحرب على الظلم وتحقيق أحلام العصور الوسطى وبطولاتها النادرة.

وأنشأ فارس المانتشا ذو الوجه الصارم الحزين، يقوم بضروب الخوارق والبطولات يرى طواحين الهواء فيحسبها عمالقة فينازلها بسيفه ورمحه، ويشهد ظروف خمر فيظنها مقاتلينَ أشداء وينقض عليها فيبقرها، ويهاجم قطيعاً من الغنم وقد قام في ذهنه أنه جيش إمبراطور، ويشاهد معرضاً للأراكوز فينقض على الدمى التي تمثل ملاحي المغرب المسلمين ويقضي عليها لأن تلك الدمى تهدد المسيحية، ثم يصبح مزهواً: «من ذا الذي يرتاب في نفع رسالة الفرسان!».

وفي كل مرة كان خيال السيد يصطدم بواقعية سانشو، وعندما يقول هذا لسيده يخجل: «هذه ليست شياطين.. إنها طواحين هواء!» ينظر إليه دون كيخوته في شموخ وعناد ويصرخ به: «ما أجهلك بأصول المخاطرات إنها شياطين ماردة.. انظر!».

وصادف مرة جماعة من السجناء يقودهم عدد من الجند للعمل في الأسطول الملكي، فاستوقفهم واستجوبهم وأصدر حكاً ببراءتهم من الجرائم المنسوبة إليهم أو عدم مسؤوليتهم عنها، وأمر الجند بإطلاق سراحهم واشتبك معهم في القتال، وانتهز السجناء الفرصة فلاذوا بالهرب، ولكن دون كيخوته يستوقفهم ويطلب منهم، أن يذهبوا إلى حبيبته دولسينا ويصفوا لها ما قام به من عمل مجيد، ويحاول السجناء إقناعه من دون جدوى باستحالة ذلك ثم يرجمونه بالحجارة ويسرقون حمار سانشو ويواصلون هربهم. ولما نبهه سانشو إلى أن المأثرة الجميلة التي قام بها ستجر مصائب وأتعاباً لا قبل لها بها، صح عزمه على سلوك طريق آخر اتقاء للشر.

وكان من شروط الفروسية أن يهوى الفارس إحدى الأميرات، وأن يقاسي

في هواه ألوان العذاب، فتخيل دون كيخوته لنفسه حبيبة سماها الأميرة دولسينا دي طوبوزو، وأراد مرة أن يفعل مثلما فعل الفارس أماديس الذي قرأ قصته وتأثر به، فيزيل جفاء حبيبته بكفارة يقوم بها، فقال له سانشو: «ولكن حبيبتك لا تبدي لك الجفاء» فأجاب: «لا ضير في ذلك، فإنها ستعلم على الأقل أني قادر على القيام بأروع المآثر وأشد الكفارات قسوة على النفس».

وألح يوماً على سانشو أن يجيئه بحبيبته دولسينا، وشاءت المصادفة أن تمر فتاة قروية دميمة، فقال سانشو لمولاه: «هذه دولسينا» فقال دون كيخوته: «بل هذه فتاة قروية» فقال سانشو: «انظر جيداً إنها أجمل امرأة في العالم، إلا أن ساحراً خبيثاً أراد أن يداعبك فأظهرها بهذا الشكل» فصدق كلامه وركع على ركبته قائلاً: «إيه أميرة الجمال رفقاً بهذا الفارس المسكين، بهذا العبد الضعيف المرتمي على قدميك بارداً كالرخام!» فلم تفقه القروية شيئاً مما قال، وكلمته صارخة: «دعني أمر» فتأكد دون كيخوته أن الساحر الخبيث يواصل العبث به فاستطرد قائلاً: «أيتها الشمس الحية، يا رائعة الجمال البشري، يا أعجوبة جميع العصور، أيها الدواء الوحيد لهذا القلب الحزين الذي يعبدك، انظري إلي نظرة حب وحنو على الرغم من ذلك الساحر الخبيث الذي أغاظه مجدي فحجب عني جمالك البديع!».

ونزل يوماً في فندق ثم تخيله قلعة حصينة وخرج على فرسه لحماية هذه القلعة، وبينما هو يناجي حبيبته أميرة طوبوزو شاكياً فراقها وجفاءها، أنشأت ابنة صاحب الفندق وخادمتها تهزآن به وهما واقفتان أمام كوة أحد الأقبية، فتخيل أن هذه الكوة نافذة ذات قضبان ذهبية، وأن الفتاة ابنة صاحب القلعة وقد شغفها حباً وهي تحاول استمالته إليها فدنا من الكوة وجعل يعتذر للفتاة عن تلبية رغبتها ويرجوها العودة إلى مخدعها لأن قلبه الوفي لا يبيح له خيانة أميرته المحبة، فقالت الفتاة: «هات يدك على الأقل يا سيدي الفارس» فوقف على سرج فرسه وأدخل في الكوة يده التي تقوم بالمآثر وتفتح الممالك، فأخذت بأحد طرفيه وقفل الباب بالطرف الآخر، وتوارت مع خادمتها تاركة الفارس

المغامر طول الليل وهو موثق من يده واقف على قدميه فوق سرج روزينانتي، لا يجرؤ على القيام بأية حركة لئلا تسير به الفرس فيقع على الأرض.

وتنتهي مغامرات دون كيخوته بتآمر بعض الشبان عليه وذلك بدعوته لمنازلة أحدهم زاعمين أنه فارس جوال يدعى «فارس القمر الأبيض» ثم يقطعون رباط سرج الفرس روزينانتي، فما يكاد يبادر إلى النزال حتى يسقط على الأرض. وكان من شروط هذه المبارزة أن يعود إذا أخفق إلى بيته ويتوقف عن مغامراته سنة كاملة، فبرّ الفارس بوعده وما لبث حتى شفي من جنونه إلا أنه استسلم إلى موجة من الحزن انتهت به إلى الموت.

وقد نشر الجزء الأول من **«دون كيخوته»** في عام ١٦٠٥ وسرفانتس في الثامنة والخمسين من عمره، وانقضت بعد ذلك عشر سنوات من دون أن يصدر الجزء الثاني منها، وكان منصرفاً في خلال ذلك إلى كتابة القصائد والمسرحيات التي يعتقد بأنها أفضل من **«دون كيخوته»**. والواقع أن شعره كان متوسط الجودة وقد أدرك ذلك فشكا من أن السماء قد ضنت عليه بموهبة الشعر، كما أن مسرحياته لم ترتفع إلى مستوى مسرحيات معاصره لوبي دي فيغا عملاق المسرح الإسباني الذي قال سرفانتس إنه إحدى خوارق الطبيعة.

وفي سنة ١٦١٤ استغل كاتب مجهول شهرة **«دون كيخوته»** فأصدر جزءاً ثانياً مزيفاً منها وقعه باسم فرنانديس دي أبيانيدا، فغضب سرفانتس وعمد إلى كتابة الجزء الثاني من الرواية وأصدره في السنة التالية. وفي هذا الجزء تزداد الرواية طرافة والفكاهة متعة والأسلوب حسناً، وتبلغ مستوى فنياً أرفع، ونرى دون كيخوته أكثر إيماناً ببطولته وتعلقاً بمجد الفروسية، كما نرى سانشو أرهف ذكاء وأعمق إدراكاً. وقد حقق فارس المانتشا في هذا الجزء بطولة حقيقية في مغامرته مع الأسد، فأطلق على نفسه لقب «فارس الأسود» وكان سانشو قد أطلق عليه قبلاً اسم «الفارس ذو الوجه الكئيب».

وقد وثبت رواية **«دون كيخوته»** بسرفانتس إلى ذروة الشهرة، وترجمت إلى معظم اللغات الأوروبية، ولكن ذلك لم يبدل إلا قليلاً من وضعه المادي،

فظل يكابد الفاقة، بينما كانت شبه الجزيرة الإسبانية تحفل بالثروات الباذخة وأشتات المتارف، وقصر الملك يعج بالندماء والمهرجين الغارقين في النعيم.

ويرى أن فيليب الثالث كان يطل يوماً من شرفة قصره ومعه عدد من النبلاء، فشاهد شاباً يسير على ضفة النهر وقد غطى رأسه وحمل في يده كتاباً، وهو يقف بين حين وآخر ليضرب رأسه بيده ويضحك من أعماق قلبه، فقال الملك لمن معه: «إن هذا الشاب إما أن يكون مجنوناً أو أنه يقرأ في كتاب **«دون كيخوته»** وذهب أحد رجال الحاشية ليتحقق الأمر ثم عاد يؤكد للملك أن الشاب طالب يقرأ دون كيخوته، فضحك فيليب الثالث ومن معه من النبلاء».

وكان الملك والنبلاء يعرفون جميعاً أن سرفانتس يعاني المرض ولا يملك ثمن العلاج، ومع ذلك فإن أحداً منهم لم يهجس في ضميره أن من واجب الدولة أن تخص بعنايتها، بقسط يسير من عنايتها، هذا الأديب العظم الذي حارب في سبيلها وضحى من أجلها وأكسبها مجداً باقياً على الأيام.

ويروي أسقف طليطلة أنه عندما زار فرنسا في سنة ١٦١٥، سأله الكثيرون من الفرنسيين عن سرفانتس فأخبرهم بأنه في كهولته وقد كان جندياً وهو من أسرة طيبة ولكنه فقير، فقال له أحدهم: «لماذا لا تساعد الخزانة العامة مثل هذا الرجل؟ فاعترض آخر قائلاً: «إذا كان الفقر يرغم سرفانتس على الكتابة فأرجو ألا يعرف الرخاء مطلقاً لأن فقره يغني العالم!»».

وبعد، من هو دون كيخوته وماذا يمثل؟ في اعتقادنا أن قصة هذا الفارس التائه هي قصة سرفانتس نفسه وقصة الإنسان كل إنسان، في سعيه بين الخيال والواقع، وجريه وراء سراب من الآمال والمثل يستريح إليها ويعيش في كنفها ويغني نفسه من أجلها، ثم يكتشف أنها لم تكن إلا أوهاماً وأضغاث أحلام، وأنه قضى حياته وأفنى عمره وهو يحارب الأشباح ويطعن الهواء. ويقول هنري برلين في هذا الصدد: «قال سرفانتس في مقدمة كتابه الخالد: «إنني في الظاهر والد دون كيخوته ولكني في الحقيقة زوج أمه» فهو بالغريزة التي هي تاج المواهب للعبقرية المبدعة، عرف أن دون كيخوته هو ابن الطبيعة لا ابنه هو،

وتكهن أنه بمرور العصور سيبلغ عظمة أكبر ما قدرها له زوج أمه. ولقد طال الجدل العقيم في هذه المسألة، وهي هل كان سرفانتس يريد أن يمنح أشخاص روايته قيماً رمزية، ولو أنه أراد أن يرمز لمعنويات لأخفق في إخراج عمل فني، ولكنه لم يهتم إلا بخلق شخصيات، وهذا هو السبب في أنه أبرز للعالم رموزاً دائمة. فكما أن الحجر يلقى على وجه الماء فيحدث دوائر تزداد اتساعاً، مع أن سقوطه لم ينشأ إلا عن اتباع قانون الجاذبية، كذلك المؤلف الذي يستطيع لمس الروح يحدث فيها دوائر أكبر من أن يدركها البصر. فدون كيخوته وسانشو ودون جوان وهاملت وفاوست هم الخمسة العظماء الذين خلقهم خيال الإنسان، وفي كل جيل كان يحاك حول أسمائهم نسيج جديد من الأساطير والآراء والتفاسير والرموز. وهذه مزية المخلوقات الفنية الحية التي تفرض شخصيتها بمجرد حيويتها على عقول الناس».

ليوبولد سنغور

من الشعر وإلى الشعر يعود...

في منتصف الثلاثينات كان يلتقي في الحي اللاتيني بباريس ثلاثة من شعراء إفريقية ويتبادلون الرأي في وضع بلادهم التي تعيش على هامش العالم والحضارة، ومصير الإنسان الأسود الذي لم يعان بشر ما عاناه من إذلال واحتقار، منذ كان النخاسون يتخاطفونه ويبيعونه في أسواق العبيد كالماشية، إلى أن جاء المستعمرون يسيطرون عليه وينهبون بلاده ويدمرون حضارته.

ثلاثة كان يجمعهم الشعر كما تجمعهم التجربة الاستعمارية المريرة، وانطلاقة التحرر الوطني، والحيرة بين المحافظة على التراث الثقافي عماد الهوية القومية، وبين التفتح للتيارات العالمية للثقافة الحديثة التي قلما انفصلت عن تراث الغرب. فهم خير من يمثل حينذاك النخبة الزنجية الإفريقية الناطقة بالفرنسية، والمتميزة بجميع سمات الفكر الفرنسي، حتى انتهى بعض أفرادها إلى احتقار مميزاتها الخاصة، وباتوا يتوهمون بأنهم فرنسيون ذوو بشرة سوداء.. كأن الضحية والجلاد لا يختلفان إلا بلون البشرة!

كان أحدهم من غينيا ويدعى ليون كونتراس داماس شاعر التام تام الذي يدحرج سعار الأعين وسعار الأيدي وسعار الأقدام، من نغم إلى نغم..

وكان الثاني من المارتينيك ويدعى إيميه سيزر وشعره صرخة الإنسان الزنجي في وجه المستعمر الأبيض، صرخة الجنون المحموم، الجنون الذي يتذكر، الجنون الذي يرى، الجنون الذي يعوي، صرخة اثنين واثنين تساويان خمسة..!

أما الثالث فهو ليوبولد سيدار سنغور أعظم شعراء الكلام الأسود في السنغال، وكان يمثل دور سقراط في تلك المأدبة الفكرية.

وفي هذه المأدبة التي تواصلت وتتابعت، وبعد حوار معقّد ومتشابك في البحث عن الهوية الثقافية الزنجية، تبنى أولئك الشعراء الثلاثة نظرية إفريقية تهدف إلى التحرر من كل أثر للتغريب الذي يحدثه الاستعمار في ثقافة الشعوب ووجدانها، والعودة إلى الشخصية التاريخية للكائن الإفريقي، وإحياء التراث الضارب في أبعاد الزمن والقيم الحضارية المميزة للعالم الأسود، تلك القيم التي ولدت من تفاعل العرق والبيئة والتقاليد.

وابتدع أولئك الشعراء كلمة جديدة في اللغة الفرنسية هي الزنوجة Negritude وأطلقوها على تلك النظرية التي عبرت عن يقظة الوعي القومي العرقي وكانت تتلاقى مع نهضة القارة الإفريقية وانطلاقة الإنسان الأسود، وإن كانت تتعارض أو تتناقض مع الأممية الماركسية التي كانت تلقي شباكها لاصطيادهم.

وسرعان ما غدت الزنوجة نظرية القارة في وجه سفاحيها وظالميها، وتحولت عند بعض معتنقيها إلى حركة رفض لكل ما جاءت به الحضارة البيضاء، وعند آخرين إلى صرخة حرب ودعوة إلى الثورة، أما عند ليوبولد سنغور الذي تابعها وشرحها وطورها فقد غدت رسالة إنسانية وإيديولوجية سياسية تحمل مضموناً جمالياً وأخلاقياً وروحياً في عالم طغت العقلنة عليه وتحكمت الآلة العجماء بمصائره.

ولعل قصيدته «إلى نيويورك» تعكس هذه الرسالة وتفسر مضمونها، فهو يصور فيها انبهاره للوهلة الأولى بالحضارة الأمريكية وناطحات السحاب، والفتيات الذهبيات الفارعات ذوات السيقان الطويلة، ولكنه سرعان ما يشعر بالاختناق لأنه قضى في مانهاتن خمسة عشر يوماً من دون أن يرى فيها طفلاً يحمل زهرة ويضع يده في يده بحنان:

«كل الذي أراه سيقان من النايلون

الأثداء لا تعرف العرق هنا ولا السيقان

ما سمعت منذ قدمت لفظة حبيبة عطوفة

لأنه لا توجد هناك شفاه.

وإنما توجد قلوب اصطناعية

مدفوع ثمنها نقداً

لا كتاب يحمل الحكمة من صدر لآخر».

وبعد أن يرسم صورة قاتمة للحضارة المادية يدعو عاصمة هذه الحضارة الشائخة إلى البحث عن دم جديد يبعث فيها الحياة، وهذا الدم الجديد إنما يتدفق في هارلم حي الزنوج حيث يهب نسيم قمح أخضر من الأرصفة التي حرثتها أقدام الراقصين الحافية، وتتدحرج عناقيد الحب من البيوت الواطئة:

«اسمعي يا نيويورك! اسمعي صوتك الذكر يتردد في البوق النحاسي

صوتك المرتجف في أعالي الغابات

وقلق دموعك المغلق يساقط حصى ضخمة من دم

اسمعي قلبك المفعم بالظلام يخفق من بعيد نغم تام تام ودم!

نيويورك! إني أهتف: يا نيويورك! دعي الدم الأسود يدفق في دمك

دعيه ينزع الصدأ عن مفاصلك الفولاذية كزيت الحياة».

إن هذه القصيدة تعبر عن نظرية الزنوجة خير تعبير، ففي اعتقاد سنغور أن الحضارة الغربية التي قدمت للعالم الثالث على أنها الحضارة العالمية، غير جديرة بهذا الاسم، لأنها تفتقر إلى الخصائص الحضارية في آسيا وإفريقيا، والزنوجة هي القيمة الدائمة للحضارة الزنجية، والروح الجماعية، واحترام القيم الروحية، وهذا ما تحتاج إليه حضارة الغرب.

ولا تعني الزنوجة الانفصال عن العالم والتنكر لحضارته، وإنما تعني

التعامل معهما من دون الذوبان فيهما، وإعطائهما خصائص الحضارة الزنجية الإفريقية وأبرزها الحب والخير والشرف.

يقول سنغور: «نحن نرتبط مع قارات العالم الخمس، بروابط أقوى من الأسلاك التي تشدنا إليها، ومع فرنسا على نحو أوثق وأخص. ذلك بأننا أصبحنا رهن مصير واحد، وإن تلك القارات تنافسنا في الميادين الاقتصادية كما في الميادين السياسية بشكل رهيب، وإننا إذا أردنا أن نستمر في البقاء، لا نملك أن نتهرب من التكيف، والإذعان لضروراته. لا بد لنا من تمثل هذا العصر وهضمه فبيئتنا لم تعد غرب إفريقيا وحسب، وإنما هي أيضاً فرنسية، وهي دولية، أو هي بقول شامل: أفروفرنسية»... «المراد أن ننطلق من البيئة الزنجية الإفريقية وحضاراتها التي يسبح الطفل الإفريقي في فضائها، على أن يحفظ هذا الطفل ويعرف ويعبر عن عناصر تلك الحضارات بلغته الأساسية أولاً ثم بالفرنسية».

واتهم الماركسيون ليوبولد سنغور بأن نظريته عرقية. وأجاب سنغور: العرق الواقع، وهناك فرق بين العروق ليس هو بالدونية ولا بالتضاد. وكما يقول ده لافيني: «إنا لنتذوق عذوبة خاصة في أن نكون مختلفين ومجتمعين في آن واحد». عرقية! نعم، ولكن بلا ضغينة، لأن الزنجي عاجز عن البغض على نحو دائم:

«لقد نسينا كل شيء، ونحن نعرف كيف ننسى، نسينا المائتي مليون من ضحايا تجارة الرقيق. نسينا عنف الفتح وإذلال المواطنين. لم نحتفظ إلا بالمساهمة الإيجابية. نحن الحبة التي ديست بالأقدام، الحبة التي تموت لتحيا الحضارة الجديدة، الحضارة الإنسانية الشاملة، الحضارة الكونية التي ستجمع الأمم والحضارات كلها. فالعرقية في نظرنا ليست سوى بنت للجغرافية، أو بتعبير آخر، إنما هي التاريخ والجغرافيا متزاوجان. إنها ليست عرقية هتلر بل هي عرقية تيلار دي شاردان».

الزنوجة إذن نظرية قومية إنسانية لا تتنكر للإنسان، وإنما تدعو الزنوج

الإفريقيين إلى الغوص في تربتهم حتى يبلغوا جذور عروقهم ليبنوا على أساسها العميق، وليعيشوا خصائصها ثم يقدموها إلى العالم إسهاماً في الحضارة الشاملة التي يعطيها كل شعب أفضل ما عنده، ولن تأتي الشعوب الزنجية إليها خاوية الوفاض، ومن ذا الذي يستطيع أن ينكر بصمات الزنوج على الحضارة المعاصرة في ميادين الرسم والنحت والموسيقى والرقص.

وتعتقد الزنوجة بوجود «روح زنجية» أو «روح سوداء» ثابتة تتطور قيمها وتتجوهر عبر التاريخ، ويصور سنغور هذه الروح بقوله: «إن الزنجي لا يملك أن يتصور الشيء مختلفاً عنه في جوهره. إنه ليعيره روح إنسان وإرادته وحساسيته، ولكنها روح إنسان زنجي. وهكذا فإن الطبيعة كلها تنتعش بحضور إنساني، إنها تتأنس بالمعنى الأصيل والراهن للكلمة، فليست الحيوانات وظواهر الطبيعة تتحول إلى بشر وحسب، وإنما ينتظم هذا التحول الشجر والحصى، بنسبة ما يشمل المطر والريح والرعد والجبل والنهر. وهي تصبح كائنات بشرية وتحتفظ بخصائصها الطبيعية الأصيلة، كأدوات وعلامات لروحها الشخصية، وتلك هي السمة الأكثر عمقاً، السمة الأبدية للروح الزنجية. إنها هي التي عرفت تقاوم في أميركا، جميع محن العبودية الاقتصادية و«التحرر المعنوي»». .

ويجمل سنغور رأيه بالزنوجة التي شرحها وفسرها في كثير من المحاضرات والمقالات، بقوله: «إن هذه الزنوجة المنفتحة، إنما هي بذلك، نزعة إنسانية. وقد اغتنت على نحو فريد بمآتي الحضارة الأوروبية وأغنتها. والنزعة الإنسانية في القرن العشرين هذا، «ملتقى التوسع الإنساني». لا يمكن أن تتكون إلا بهذا التبادل بالقلب والروح، بهذا «الأخذ والعطاء». ولقد كنت أبدي ذات يوم لغائتان بيكون، إعجابي بالموسيقى الأوروبية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، فأجابني: «ما أبعد ذلك عنا! إنها عالم آخر» صحيح! ذلك لأن الزنجي انتقل إلى هناك بتماثيله وموسيقاه ورقصه. وما من أحد يعرف الأمر كما يعرفه بيكون الذي يستخدم في تعريف روح هذا القرن كلمات علماء السلالات البشرية ليبين سمة الحضارة الزنجية الإفريقية: «مجابهة». .

«مساهمة». . «تواصل» الذات والموضوع. والزنوجة تكمن، آخر الأمر، في هذا الموقف أمام العالم».

وقد شكلت حركة الزنوجة في الشعر والفن عودة إلى الأساطير والرموز والرؤى القديمة لصياغتها فنياً من جديد، فتجلت في أدب سنغور نبرة الحياة الطليقة من كل إسار، وتمثلت فيه الأصالة الإفريقية وما تتسم به من عنفوان مقرون بالمحبة، وتميز بسحر الكلمة وإشراق الرؤى وقوة الإيحاء، وحضور إفريقيا في رمال الصحراء وحرارة الساحل وجسد المرأة، وهبوب الرياح بين الأدغال الكثيفة، وعبير الحر على قرع الطبول الموقعة، والأقاصيص الممزوجة بالأفاويه، والسهول الغرقى التي توقع الأناشيد، ونبض الغابات الضائعة في الضباب، والليل المتكىء على تلة من الغيوم، والقرى ذات الأهداب الطويلة المسبلة، والخيام ذات الظل الإلهي، والأهراء التي تعج بالغلال والأطفال، ولمسات الشمس فوق الأجساد العارية، والأقنعة ذات النظرات الحادة، والبكاء عند الأماسي حول النار، وأرواح الأجداد الموشحة بالبروق والصواعق:

«أنت يا جذور حياتي

أنت التي نفثت الحياة في قبيلتي

اغمريني قليلاً بقوة الأسد

وانبتي في صدري خصيلاته

إنني أسمع زئيرك

يا أسد محتدي

فقوة القبيلة في ساعدي

أنفح جبروتك في أعماقي

فابن الإنسان يترقبني!»

وغالى الشاعر المسكون بهاجس الزنوجة حتى لم يعد السواد عنده لوناً

وحسب بل أضحى معادلاً للجمال وإدارة الحياة، فهو يتحدث عن النبيذ، والنورس الأسود، والجسد الأسود، والشعر الأسود، والقناع الأسود، والحليب الأسود، والشفة السوداء، والذاكرة السوداء، ويستشهد بما جاء في نشيد الأنشاد عن ملكة سبأ: «لأنك سوداء ولأنك جميلة!» وسنغور يخاطب ملكة سبأ في إحدى قصائده بقوله: «يا أمي!».

ولد ليوبولد سنغور سنة ١٩٠٦ في عائلة ثرية من قبيلة السيرير تملك الكثير من الأراضي والغابات وقطعان الماشية، في قرية جوال بمقاطعة سين سالوم، فعاش طفولته مع الرعاة والفلاحين في عالم من الرموز والأساطير والطقوس الإفريقية، يشهد الزعانف في أشجار الحومر، والتماسيح تحرس العيون، وخراف الماء تتغنى في النهر، ونيران السحرة كأرواح شاردة على الدروب أو طيور بلا أجنحة، ويسمع شعراء حلقات الرقص يرددون قصائدهم وهم ينقرون على الدفوف، وأموات القرية والأسلاف الغابرون يناجونه بأسرار الحياة الزنجية حيث ترفرف أرواحهم على الأشجار المرتعشة وفي الغابات التي تئن وفي المياه الجارية والوديان الهادئة، ويحلم بمدن الغد التي ستقوم على رماد المدن الغابرة والنجوم تخترق جبينه بنظراتها القوية.

وكان والده يوجعه ضرباً كلما عاد إلى منزله ليلاً لكثرة تجواله وتشرده، فلما بلغ سن الثامنة عزم على معاقبته بإرساله إلى مدرسة داخلية يديرها الرهبان الكاثوليك في نجا سوبيل حيث بدأ يتعلم اللغة الفرنسية بدل لغة السيرير، ويتقن مبادىء السلوك الأوروبية. وبقي سنغور في هذه المدرسة الرسمية في داكار عاصمة السنغال.

وإذا كان المثل الفرنسي يقول: «في داكار تنتهي أوروبا» فبالنسبة إلى سنغور يمكن أن يقال: «في داكار يبدأ المستقبل».

وداكار تعني في لغة الولوف المحلية «النخيل» أما السنغال فتعني «هذه قواربنا» ولذلك قصة طريفة.. فقد روي أن الفرنسيين الأول عندما ألقوا مراسي سفنهم في مياه هذه البلاد المعروفة آنذاك باسم «الرأس الأخضر» وجدوا قرية

على الساحل فسألوا أبناءها عن اسمها، وخيل لهؤلاء أنهم يسألونهم عن غابة النخيل التي كانت ممتدة هناك، فأجابوا: «داكار»، ولدى سؤالهم عن اسم بلادهم وكانت أيديهم تشير إلى القوارب المنتشرة على ساحل القرية، ظنوا أنهم يسألونهم عن قواربهم المصنوعة من جذوع الأشجار الضخمة فقالوا مزهوين: «سوني غال» أي هذه قواربنا!... وفي الرواية أن الفرنسيين أطلقوا الاسمين على البلاد والقرية!

في هذه المدينة التي تعتبر عروس السنغال عاش سنغور أربع سنوات وتخرج من مدرستها الثانوية سنة ١٩٢٨ بنجاح باهر وحصل على نصف منحة من الحكومة للدراسة في معهد التعليم العالي في فرنسا.

وفي فرنسا تعمقت صلته بالثقافة الفرنسية وتعرّف بكثير من أعلامها، وأتقن اللغتين اللاتينية واليونانية إلى جانب تفوقه باللغة الفرنسية، وكان أول زنجي إفريقي يصبح مجازاً في جامعة فرنسية عام ١٩٣٨. وقد نال على أثر ذلك الجنسية الفرنسية، وغدا كوكباً ساطعاً في ندوات باريس الأدبية. ويروى أنه تجادل مرة مع أحد أصدقائه الفرنسيين، وقد دهش هذا لأن سنغور لا يريد أن يرى في الزنوج قوماً بدائيين، فأنهى الحوار بقوله: «اعترفوا على الأقل بأننا أتيناكم بالحضارة! فأجابه: «لا.. لم تأتونا بالحضارة وإنما أتيتمونا بحضارتكم، فدعونا نأخذ منها بعض ما فيها وتحملوا منا رد الباقي!»».

وبينما كان سنغور يتولى التدريس في الليسيه في تولوز ثم في باريس، اشتعلت الحرب العالمية الثانية فالتحق بالجيش الفرنسي، ثم انضم إلى المقاومة، فقبض عليه النازيون سنة ١٩٤٠ وأودعوه في السجن وقد حاول الألمان إغراءه بالعمل معهم ضد الفرنسيين، فرفض ذلك وقام بتنظيم عصيان بين الأسرى.

ولما انتهت الحرب عاد إلى بلاده وانضم إلى صفوف الحركة الوطنية فانتخب في سنة ١٩٤٥ عضواً في المجلس النيابي الفرنسي. وفي سنة ١٩٤٨ أصدر كتاب **«مختارات في الشعر الزنجي والمدغشقري»** وكتب سارتر مقدمة لهذا

الكتاب أعرب فيها عن احتضار المدنية الغربية بينما تتوهج الحضارة الإفريقية بالحياة وحرارة الشموس والبراكين، ومما جاء فيها:

«على حين غرة وتبدو فرنسا في عيوننا بالذات، غريبة كبلاد نائية، فهي لم تعد إلا ذكرى، إلا شعوراً مكدراً، إلا ضبابة بيضاء قابعة في أعماق نفوس تلفحها الشمس، إلا بلداً نائياً معذباً لم تعد تطيب فيه الحياة التي انحرفت نحو الشمال، وها هي ذي ترسو قرب كامشكايا. إن الشمس هناك هي الأساسي، شمس المدارات والبحر الحافل بالجزر وبراكين المارتينيك. إن الكينونة سوداء، الكينونة من نار، ونحن عرضيون بعيدون، عليناأن نبرر أعرافنا وتقنياتنا وشحوبنا الذي لم تلفحه الشمس.. إن تلك النظرات المطمئنة القارضة تتآكلنا حتى العظام».

وفي تلك السنة نفسها وجه سنغور في ٢٧ أيلول (سبتمبر) رسائل إلي غي موليه وموريس توريز وإيمه سيزير يعلن فيها ابتعاده عن الأحزاب الماركسية لأنه اكتشف أن الماركسيين الفرنسيين طالما استخدموا عبارات جميلة ولكنها تعبر في الواقع عن نزعة استعمارية أكثر ما يصدر عن أشد الفرنسيين رجعية. وقال: «لقد طرحنا من الماركسية الإلحاد والعنف، اللذين يناقضان طبيعتنا كل المناقضة، وتبنينا البحث والتكنيك اللذين كانا ينقصاننا لقلة الاهتمام بتنميتهما. لقد طورنا خصوصاً التعاون الاتحادي في الإيمان من دون التعاون الإشاعي. ذاك أن التعاون العائلي، القروي والقبلي، كان دائماً محترماً في إفريقيا السوداء، وليس في شكله الإشاعي كخليط أفراد، ولكن في شكله الاتحادي الإيماني الذي تتجه فيه القلوب بعضها نحو بعض» ثم عمد إلى أنشاء حزب «التجمع الديمقراطي السنغالي» وتزعم حركة النضال من أجل الاستقلال».

وفي سنة ١٩٥٩ تألف اتحاد مالي من السنغال والسودان الفرنسي، وكان من المفروض أن تنضم إليه فيما بعد كل من موريتانيا وفولتا العليا والداهومي لتأليف دولة اتحادية تكون نموذجاً للدول الإفريقية الأخرى. وقد احتل السودانيون في هذا الاتحاد مكانة مرموقة نظراً لكثرة عددهم وتضامنهم، فعهد

بمنصب رئاسة الدولة إلى السوداني موديبوكيتا، وبمنصب رئاسة الوزارة إلى السنغالي محمد مامادو ضيا، بينما انتخب سنغور رئيساً للجمعية الوطنية. وكان هذا الإجراء مؤقتاً بانتظار انتخابات رئاسة الجمهورية التي تقرر إجراؤها في ٢٧ آب (أغسطس) ١٩٦٠، إلا أن السنغاليين لم يكونوا راضين عن وجود سوداني على رأس الاتحاد، على الرغم من أن السودانيين يؤلفون الأكثرية فيه، لأنهم يعتبرون الشعب السنغالي أرقى ثقافياً وأغنى مادياً. وأمام إصرارهم وافق السودانيون على أن تكون لهم رئاسة الوزارة وللسنغاليين رئاسة الدولة، ورشحوا لهذا المنصب الأمين غاي رئيس بلدية داكار، فرفض فريق كبير من السنغاليين ذلك ورشحوا لمنصب الرئاسة ليوبولد سنغور، وكانت فرنسا تؤيد أيضاً هذا الترشيح. وهددت قبائل السيرير بالزحف على داكار وبدأ الزحف فعلاً في ليلة ١٩ آب (أغسطس)، ما أدى إلى انفصال الاتحاد وإعلان السنغال جمهورية مستقلة برئاسة سنغور.

وقد وطد سنغور أركان الاستقلال، وأرسى قواعد التنمية، وحافظ على الحياة الديمقراطية من دون إراقة نقطة واحدة من الدم، وذلك أبرز مزاياه. فهو لم يتكلم يوماً كرئيس جمهورية، وكان الشاعر دائماً أهم فيه من الرئيس، فخاطب مواطنيه بلغة الحياة والصدق والشرف، وأخذت السياسة على يديه مفهوماً جديداً. وكانت السنغال في عهده دولة يحكمها فريق من رجال الثقافة والفكر بروح الأخوة والتسامح والحوار بين المسلمين الذين يؤلفون ٨٥ بالمئة من السكان وبقية المواطنين، كما كانت الدولة الوحيدة في العالم الثالث التي تخصص ثلث ميزانية الدولة للثقافة والتعليم وقد ارتفع عدد التلامذة فيها من ١٠ آلاف تلميذ في العام ١٩٦٠ إلى ٤٠٠ ألف في العام ١٩٨٠، وتعلم اللغة العربية في مدارسها إلى جانب اللغة الفرنسية التي هي اللغة الرسمية للبلاد.

وكان من المتحمسين لحركة عدم الانحياز وما قاله عن مؤتمر باندونغ:

«إن أي حدث من الأحداث التاريخية لم يكن له من الأهمية ما كان لمؤتمر باندونغ منذ عهد النهضة، منذ الاكتشافات الكبرى التي تميزت باستيلاء

الأوروبي على العالم، وبهيمنته خصوصاً على الشعوب الملونة، حتى ولا تأليف الجبهة الإفريقية الآسيوية في قلب منظمة الأمم المتحدة».

«إن مؤتمر باندونغ كان أكثر من انتصار عسكري يوطد توازناً جديداً للقوى السياسية، مع العلم أن هذا التوازن الجديد يكون دائماً موقتاً، وكان أكثر من اكتشاف علمي يستنبط معدات حديثة ويضمن سيادة الإنسان على الطبيعة. لقد كان هذا المؤتمر انتصاراً معنوياً للشعوب الملونة. هذه الشعوب التي كانت حتى أمس محتقرة محكومة لأنها ذات حضارات بدون آلات، شمخت برأسها للمرة الأولى، ونادت، بوساطة مندوبيها، بكرامة الإنسان. وإذا كانت تدرك أنها تمثل الأكثرية البشرية، فقد أخذت على عاتقها القيام بمسؤولياتها، وأعلنت الشريعة الأدبية التي ينبغي أن ترعى العلاقات بين الأمم، وشجبت العنف والاختراعات المدمرة الفتاكة، ونادت بالحرية والمساواة لجميع الشعوب، كشرط لا بد منه للتعايش السلمي بين الأمم».

«ومؤتمر باندونغ هو أكثر من هذا أيضاً، فقد حكم بالموت أولاً، أمام التاريخ، على الصنيع الاستعماري، ومن ثم على الشعوب البيضاء ذات الأصل الأوروبي بما فيها الروس».

وكان سنغور من دعاة التعاون العربي الإفريقي وقد قال: «إن التعاون بين إفريقيا العربية وإفريقيا غير العربية يجب أن يصبح حجر الزاوية الذي عليه ينهض الصرح الكبير، صرح الوحدة الإفريقية». ولاحظ أن عرب إفريقيا يمثلون جزءاً كبيراً من شعوب جامعة الدول العربية، وأن هذه الأمة العربية الكبرى يمكنها أن تعطي القارة الإفريقية ثروات ثقافية وحضارية لا حدود لها، نظراً لأن العروبة مترسخة في إفريقيا منذ القرن الثامن، ولم تزل الحضارة العربية الإسلامية تخصب إفريقيا الزنجية. فالزنوجة لا تتنافى مع العروبة بل إن هاتين الحضارتين متكاملتان.

وبصدد الأسباب الاقتصادية الداعية إلى هذا التعاون العربي الإفريقي، يقول سنغور: إنهم يأتون من أميركا وأوروبا لكي يقولوا لنا محذرين: انتبهوا

فأنتم ضحايا العرب الذين رفعوا أسعار نفطهم إلى حد يهدد اقتصادكم بالدمار ويجعل نموكم أمراً مستحيلاً «والواقع أن القضية الاقتصادية إذا عولجت من هذه الزاوية فلا شك في أنها لن تحلّ لأن هذه الطريقة في معالجتها عقيمة خرقاء. فليست جميع الدول العربية منتجة للنفط، كما أن في القارة الإفريقية السوداء دولاً منتجة للنفط وليست عربية. وقد شرعنا في الحوار العربي الإفريقي ولا بد لنا من متابعته وتنظيمه. وإذا كنا في حاجة إلى شيء في الوقت الحاضر، فإنما نحن في حاجة إلى هذا التضامن بيننا لأنه الشرط الوحيد كي ننتصر معاً في كفاحنا لأجل ربط أسعار المواد الأولية بأسعار البضائع المصنوعة، ولكي نحصل على العدالة الاقتصادية بين الدول الفقيرة والدول الغنية».

وكان سنغور يقف في وجه التغلغل الإسرائيلي في بلاده، ولما قطعت السنغال علاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل كتب له الأديب الإسرائيلي عزرائيل أخماني رسالة يعاتبه فيها على هذا الموقف ويقول: «وما زاد في دهشتنا أن هذا القرار قد صدر عن شخص طالما أعجبنا بمواقفه الأدبية حيال موجات الحقد والشراسة التي كانت تغمر العالم بفيضها، عن شخص بنبىء شعره المتأجج، ويفخر، برسالة الأخوة والصداقة».

وقد أجابه برسالة مسهبة نشرتها الصحافة الغربية وما جاء فيها: «أود أولاً أن أطمئنك، ففيما يخصني، ليس لدي أصدقاء كثر من اليهود وحسب، بل إن إحدى نسيباتي قد تزوجت من ابن الشاعر تريستان تزارا الذي كان كما تعلم يهودياً. ومن جهة أخرى، فإن المرة الوحيدة التي خاطرت فيها بحياتي لأنقذ حياة إنسانية أخرى، كانت في خضم الاحتلال النازي، يوم خبأت في شقتي صديقاً يهودياً وابنه لمدة ثلاثة أسابيع، وأنقذت بذلك حياتهما».

«وإذا كنا قد قطعنا العلاقات الدبلوماسية مع الحكومة الإسرائيلية، فما ذلك لأسباب معنوية أو ثقافية، بل لأسباب سياسية. وإني لأقول كعادتي، إن إعطاء نبذة تاريخية عن معضلة ما، يحل نصفها، وهذا ما سأحاول أن أفعله».

«أنت تعلم أنني قد اهتممت بالنزاع العربي الإسرائيلي في عام ١٩٧٠

بصفتي رئيساً للجنة الحكماء. وقد قصدت لجنة القدس مرتين، وتل أبيب مرتين أيضاً، وكانت النتيجة الرئيسة التي استخلصناها في نهاية مهمتنا من المناقشات التي دارت بيننا وبين الحكومة الإسرائيلية والحكومة المصرية، هي أنه بالإمكان حمل الفريقين على ولوج باب المفاوضات، وأنه بالإمكان من جهة أخرى التوصل إلى سلام عادل ودائم، يسمح لإسرائيل بالحصول على اعتراف جاراتها العربيات بها قانونياً. ذلك كله بشرط واحد، وهو أن تعلن إسرائيل عدم ضم الأراضي العربية عموماً، والأراضي المصرية خصوصاً. إلا أن الحكومة الإسرائيلية للأسف، لم تقبل قط بإجراء هذا التصريح. وكان هذا الرفض أصل حرب ٦ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٣».

«هذا السبب وحده كان كافياً لأن نقطع علاقاتنا الدبلوماسية بدولة إسرائيل. ولكننا لم نفعل، بل واصلنا لمدة ثلاث سنوات، المطالبة لدى كل مناسبة بإعلان عدم ضم الأراضي المحتلة. وإذا كانت كل الحكومات الإفريقية تقريباً قد قطعت علاقاتها الدبلوماسية بإسرائيل، فذلك في المقام الأول، بسبب رفض هذه الأخيرة التصريح بعدم ضم الأراضي، هذا التصريح الذي كان من شأنه أن يسمح بإجراء مفاوضات تفضي إلى سلام عادل ودائم. سلام عادل لأنه ما كان يشتمل على تدمير إسرائيل. وسلام دائم لأن هذه الأخيرة تكون قد تنازلت عن التوسع على حساب العرب. وإلى هذا السبب الرئيس، أضيف بالنسبة للسنغال سبب ظرفي. فقد استغل الجيش الإسرائيلي وقف إطلاق النار في ٢٢ تشرين الأول ١٩٧٣ ليعبر بكثافة قناة السويس ويحاصر الجيش الثالث. في حين أنني كنت صرحت لبن ناتان سفير إسرائيل في باريس بأن السنغال سوف يضطر إلى قطع علاقاته الدبلوماسية إذا عبر الجيش الإسرائيلي قناة السويس ودخل أرضاً هي بما لا يقبل الشك، أرض إفريقية».

وجدير بالذكر أن السنغال هي أول دولة في إفريقيا السوداء اعترفت بمنظمة التحرير الفلسطينية وسمحت لها بإنشاء مكتب في عاصمة بلادها.

وبينما كان الصراع الدولي يتصاعد في القارة السوداء، والمطامع الأجنبية

تحول الخلافات القبلية إلى ساحات صراع إيديولوجية، وبدلاً من إمدادات التكنولوجيا والمعونات الاقتصادية ينهمر السلاح من الدول الكبرى على هذا الفريق أو ذاك، فيطيح الانقلابات بالأنظمة، وتحول الديكتاتوريات العسكرية وجيوش المرتزقة والفاتحون الجدد إفريقيا المعذبة إلى بركة من الدم، كانت السنغال تعيش هادئة مستقرة في ظل النظام الديمقراطي، وتتابع مسيرة التقدم والتطور بخطى بطيئة ولكن ثابتة، من دون تشنج ولا قفزات في المجهول، على الرغم من ضآلة مواردها التي تكاد تقتصر على زراعة الفول السوداني ومن موجات الجفاف التي تجتاحها بين حين وآخر وتقضي على مواسمها الزراعية.

وقد أجاب سنغور على سؤال حول نهاية المتسلطين في بعض الدول الإفريقية بقوله: «الذين شجعوا المتسلطين ومهدوا لهم الطريق في بلادنا هم المستعمرون القدامى، وفي تعبير أدق: فرنسا وإنكلترا. وإذا كان قد استعيض عن أوبوتو بعيدي أمين، فذلك لأن إنكلترا هي التي أرادت ذلك. وما أقوله ينطبق أيضاً على بوكاسا، فقد ساعدت بوكاسا جميع الحكومات الفرنسية، ولكن فرنسا غيرت في خطها ودعمت الانقلاب ضد بوكاسا عندما لاحظت الخطأ الذي وقعت فيه. أما نحن في السنغال فإننا نؤمن إيماناً راسخاً بالديمقراطية، ودائماً كانت توجد في السنغال التعددية الحزبية».

وقال عن التدخل الأجنبي في الشؤون الإفريقية: «أعتقد أن إفريقيا في وضع دراماتيكي وبعض الدول تعانيه مأسوياً. السبب الرئيس في ذلك هو أن الإمبرياليين نقلوا صراعاتهم من آسيا إلى إفريقيا بعد انتهاء الحرب الفيتنامية. ولهذا نحن في السنغال نناضل للمحافظة على مبدأين. ففي آخر مؤتمر لمنظمة الوحدة الإفريقية في ليبرفيل، صوتنا لحل سنغالي يدين التدخل من خارج إفريقيا في القضايا الداخلية للدول الإفريقية، لأننا نعتقد بأنه عندما ينشب نزاع داخل دولة ما نتيجة لتصارع الأحزاب فيها، يجب على الدول غير الإفريقية عدم التدخل فيه. ما نتمناه نحن في إفريقيا أن تتفق الدول الكبرى في الشرق والغرب على عدم التدخل في أي نزاع إفريقي، وهكذا يمكننا نحن الإفريقيين تسوية

أمورنا الخاصة. ولكن ما دامت الدول الكبرى لم تتفق على هذا المبدأ، فمن المؤكد أن الشرق لن يترك الغرب يتدخل من دون أن يتحرك، وأن الغرب لن يترك الشرق يتدخل وهو يقف مكتوف اليدين».

«وهذا التدخل من الشرق والغرب يؤلف اليوم مأساة إفريقيا، هذه الأميرة المثخنة بالجراح. ولكن يجب الاعتراف بأن الغربيين حالياً في وضع سيء لأن ردود فعلهم كانت تأتي متأخرة جداً. وقد استغل السوفيات الغياب الأميركي والأوروبي. فعندما ينسحب الغرب فإن السوفيات والكوبيين، وحتى الألمان الشرقيين، سيتقدمون».

وقد فوجىء السنغاليون الذين باتوا يعتبرون سنغور أباً لهم، باستقالته من منصب الرئاسة في مطلع هذه السنة قبل انتهاء ولايته الرابعة بعامين لأنه يريد الإخلاد إلى الراحة وكتابة الشعر، ودعوته المجلس الأعلى لقبول قسم رئيس الوزراء عبده ديوف ليخلفه كما تنص على ذلك بنود الدستور. وقد وافق المجلس على تلك الدعوة، وأسندت الرئاسة لمدة عامين لعبده ديوف ابن الخامسة والأربعين الذي بدأ دراسته بتعلم القرآن الكريم وختمها بالحصول على إجازة في الحق العام من باريس. ويمكن اعتبار حكم ديوف استمراراً لحكم سنغور لأنه كان إلى جانبه دائماً منذ كان مديراً لمكتبه في سنة ١٩٦٣ إلى أن غدا أحد وزرائه إلى أن تولى رئاسة حكومته في شباط - فبراير ١٩٧٠. ومن المؤكد أن التعديل الذي أدخله سنغور على الدستور في سنة ١٩٧٦ وأعطى رئيس الحكومة صلاحية تولي رئاسة الجمهورية حتى انتهاء ولاية الرئيس في حال استقالته، ثم مبادرته إلى الاستقالة قبل انتهاء ولايته بأكثر من عامين، قد خطط لها بدقة وبراعة لنقل السلطة إلى خلفه من دون وقوع أي خلل في الحكم واضطراب في البلاد.

ترى هل نسيء إلى الشاعر الذي تغنى بالسواد حتى وشح به كل شيء جميل، وخاطب المرأة بقوله: «أيتها المرأة العارية، أيتها المرأة السوداء المتسربلة بلونك وهو الحياة، وبشكلك وهو الجمال»، فإذا قلنا إن هذا الشاعر

حين أراد الاقتران بإمرأة تكون رفيقة حياته ونجية إلهامه، قد اختار امرأة فرنسية بيضاء؟!

وهل نسيء إلى مبتدع نظرية الزنوجة، المزهو بالعرق الأسود، والداعي للعودة إلى أصالة الحضارة الإفريقية، إذا قلنا إنه صار في السنوات الأخيرة من دعاة التهجين أو الخليط البيولوجي والثقافي، وغدا يؤمن بما ذهب إليه العالمان جان برنار وجاك مونو من أن كل الحضارات الكبيرة قائمة على خليط إيديولوجي وثقافي وأنه في الوقت الحضار لا يوجد عرق صاف على الإطلاق، ويردد مع الجنرال ديغول: «إن المستقبل هو للخليط في الجنس البشري»؟!

غوته: البركان الذي انفجر

«روح نارية متقدة تحلق بجانحي نسر»، هكذا وصفه هانريش هايني. . أما توماس مان فقال عنه: «إنه أعظم الشعراء الألمان، حبيب الإنسانية، ولا أحد يمكنه أن يعرف إلى أي مدى يمكن لشخصيته أن تنتشر وتتسع مع مرور الزمن. . وأما هو فقال عن نفسه قبيل وفاته: «من أنا؟ وماذا أبدعت؟ لقد تلقيت كل شيء، وقطفت كل شيء، وتمثلت كل ما طالته يداي، فنتاجي هو نتاج إنسان جماعي يحمل اسماً هو غوته».

إن الأحجية الهائلة التي تحيط بغوته، قد حيرت وأدهشت قرنين من الحضارة الغربية. فقد كان فيلسوفاً بارزاً، وعالماً ممتازاً، ومثقفاً موسوعياً، وإدارياً ناجحاً، وروائياً بارعاً، وكاتباً مسرحياً كبيراً، وأديباً ذا أسلوب فائق الروعة، وشاعراً غنائياً لعله الأكثر ثراء تعبيرياً في التاريخ، وعبقرياً يختلف عن شكسبير ودانتي من حيث النوع ولكنه لا يختلف عنهما من حيث المستوى.

بينما كانت الثورات في بلدان أوروبا في خلال القرن الثامن عشر، كانت ألمانيا تشهد ثورة من نوع آخر، هي ثورة الفكر والقلم، وكان على رأس هذه الثورة جوهان ولفغانغ فون غوته الذي وصف بأنه زعيم المجددين، ولكن هؤلاء المجددين كانوا من طراز غريب لأنهم كانوا في الوقت نفسه محافظين يتصورون عالماً مثالياً يتوصل فيه الإنسان إلى الحرية عن طريق الفكر لا عن طريق العنف.

كانت أمه كاتارينا أليزابيت تكستور حين وضعته في الثامنة عشرة من عمرها، فولدته في ٢٨ آب (أغسطس) سنة ١٧٤٩ وهو شبه ميت، بل لقد ظنه

أهله ميتاً حقاً، ومضت دقائق مثقلة بالألم واليأس قبل أن تهتف الجدة بابنتها: «ولكنه حي يا أليزابيت!».

وكان جد الطفل الوليد حائكاً انحدر من أب حداد، ولكنه كان من الطموح بحيث مهد لابنه جوهان كاسبار سبيل التعليم والنجاح، فغدا مستشاراً إمبراطورياً لمدينة فرنكفورت. ونشأ الطفل نشأة رخية مترفة، وعكف أبوه على تثقيفه بنفسه، وكان في ذلك جاداً شديد الصرامة، فعهد بتدريسه إلى عدد من الأساتذة الخصوصيين لتلقينه اللاتينية واليونانية والإيطالية والإنكليزية والفرنسية والعبرية والموسيقى والرسم، كما كانت أمه وهي ابنة رئيس بلدية فرنكفورت، ذات خيال مشبوب وكثيراً ما كانت تؤلف الأقاصيص التي ترويها له، فكان مديناً لأبيه بنظرته الجادة للحياة، ولأمه بنزعته الأدبية، ولمدينته بما ملأت نفسه من حب للطبيعة ذات الجمال الخلاب، وكانت تزين منزله رسوم فنية رومانية رائعة جاء بها الأب المستشار من سفراته المختلفة فتركت تأثيراً كبيراً في نفسه وغرست فيه حب بلاد الجنوب والميل إلى الشمس وأجواء البحر الأبيض المتوسط.

وعلى الرغم من أن إخوته الأربعة قد لاقوا حتفهم بعد مولدهم، وأن أخته كورنيليا وهي الوحيدة التي عاشت منهم كانت عليلة متهدمة، فإن الفتى غوته كان يتمتع بصحة جيدة، ولما أرسله أبوه سنة ١٧٦٥ ليدرس القانون على كره منه في ليبزيغ مدينة العلم والفكر، ألقى بنفسه في خضم الحياة كموج البحر الهائج الذي يلقي بنفسه على الصخور، فكان يقضي معظم وقته في الحانات والمنتزهات، مطلقاً العنان لنزواته وشهواته، مسرفاً في انتهاب الملذات، مأخوذاً بجمال المرأة وسحر الأنوثة، حتى أصيب سنة ١٧٦٨ بنزيف رئوي وانهيار عصبي، فعاد إلى منزله في فرنكفورت ليرى والده أن الشاب بارحه موفور الصحة قد عاد إليه عليلاً سقيم الجسم، وأن الطالب الذي أرسله إلى الجامعة ليعود منها رجل قانون ومحاماة قد عاد منها وهو رجل أدب وشعر. ومن مغامراته في هذا العهد حبه لآنيت شونكوف ابنة صاحبة المنزل الذي حل فيه،

وفريدريكه أوزر ابنة معلم الرسم. وقد شهد هذا العهد بداياته الأدبية التي بقيت منها قصائد كتاب «**أنيت**» وأغنية ريفية صدرت في كتاب «**نزوة العاشق**» اللذين أصدرهما سنة ١٧٦٧ ومسرحية بعنوان: «**شركاء في الخطيئة**» ختمها بقوله: «ما دمنا كلنا مذنبين، فإن خير ما نفعله جميعاً هو أن نغفر وننسى!» وقد صدرت سنة ١٧٧٠.

وما كاد الشاب يستعيد صحته حتى أرسله أبوه إلى ستراسبورغ ملتقى التفاعل الثقافي بين ألمانيا وإنلكترا وفرنسا، مزوداً بنصائحه ليكون جاداً في حياته ودراسته ويحظى هذه المرة بالشهادة العليا في القانون. ولكن غوته أعاد في ستراسبورغ سيرته في ليبزيغ، فكان يقضي أيامه بين حب راحل وحب جديد، يغازل جميع النساء، وينشد شعره في الصالونات. ومن أبرز عشيقاته في هذه الفترة فريدريكه بريون ابنة القسيس البروتستانتي التي أثارت إعجابه بأناقتها وقوامها وابتسامتها.

وفي ستراسبورغ تعرف غوته بالفيلسوف هيردر الذي ترك أثراً عميقاً في حياته، وقد حثه على مطالعة شكسبير والأدب الألماني الشعبي. فبدأ بقراءة شكسبير الذي كشف أمامه آفاقاً جديدة كان يجهلها قبلاً، وقال عنه: «إن أول صفحة قرأتها له وضعتني في أسره إلى الأبد، فشكسبير ساحر آسر يغري ويفتن كل من يدنو منه». ولما اطلع على التاريخ الألماني أعجب بشخصية غوتس فون برليخنجن فبنى عليها مسرحية رائعة لاقت نجاحاً كبيراً وجعلت منه رسولاً جديداً في نظر الشباب الطالع من أنصار حركة «العاصفة والوثبة». وتدور حوادث هذه المسرحية حول النزاع بين عهد الإقطاعية والفروسية المشرف على الانهيار والعهد البرجوازي الجديد. وتتمثل فروسية العهد الإقطاعي في شخصية غوتس الذي وصفه بالشجاعة والشرف وأظهره كأنه بطل الحريات القديمة التي أخذت تزول وتندثر تحت وطأة النظام الجديد، فقد تولى غوتس قيادة ثورة الفلاحين ليحول من دون انحرافها إلى أعمال العنف ولما اتسعت الثورة وظهر خطرها على النظام السائد لم يتردد في التخلي عنها.

ولما أحرز غوته شهادة الدكتوراه في القانون، سر أبوه وأرسله إلى المحكمة العليا في فتزلار للتمرين بإشراف قضاتها، ولكن القاضي الشاب لاحظ أن لدى القضاة الإمبراطوريتين اثنتين وعشرين ألف قضية تنتظر أن يفصلوا فيها، وبعملية حسابية سريعة رأى أنه يقتضي لهؤلاء القضاة ثلاثمئة وثلاث وثلاثين سنة حتى يؤدوا عملهم هذا، فيئس من القضاء وانصرف نهائياً إلى الأدب.

ولكنه قبل أن يغادر فتزلار كان قد وقع في الغرام الذي أوحى له بكتابه الذائع الصيت «**آلام فرتر**». وكان هذا الغرام يائساً منذ البدء، لأن شارلوت بوف التي أحبها كانت مخطوبة لغيره، وكانت فتاة في التاسعة عشرة من عمرها، وقد أعجبت بغوته ولم تستطع أن تنصحه بمغالبة عواطفه نحوها، وكان يسرها أن تراه مأخوذاً بفتنتها مستغرقاً بجمالها وأن تستمع إلى أغاريد الحب التي تفيض من شفتيه، وإن كانت قد آثرت في النهاية أن تزف إلى خطيبها كستنر. وقد أمضى الشاعر وشارلوت شهور الصيف التالية للزفاف على نحو لا نظير له، إذ كانا يقضيان الوقت معاً من دون أن يرضى زوجها على ذلك.

ولما كتب غوته رواية «**آلام فرتر**» لم يغير أسماء أبطالها وإن كان قد غيّر من سياق حوادثها ومميزات الأبطال أنفسهم، فألصق بالزوج كثيراً من النقائص، وجعل العاشق ينتحر حزناً ويأساً. وإذا كان بطل القصة قد احترق في لهب الحب، فإن مؤلفها قد نجا من الاحتراق وما لبث حتى شفي من حبه وقال عنه: «لقد تألمت كثيراً، ولكن الألم كان كالشمعة التي أضاءت نفسي وأثارت مواهبي، وها أنا أعود سليماً معافى كما كنت».

وقد ظفرت هذه الرواية منذ ظهورها بنجاح فائق، ويعود نجاحها في الدرجة الأولى إلى أسلوبها الرومانسي المؤثر وشاعريتها الفياضة وقصائدها الغنائية الرائعة، حتى إنها قد استحدثت مدرسة جذبت مناهجها أتباعاً ومريدين لا حصر لهم، كان الحزن على بطل القصة شهيد الهوى يستأثر بقلوبهم، بل إن الألوف من شباب أوروبا أخذوا يرتدون من الثياب ما كان يرتديه فرتر، ويتصرفون في المجالس مثلما كان يتصرف، ويحملون تحت أبطهم ديوان

لوسيان أو أشعاراً هوميروس مثلما كان يفعل، ويقال إن كثيرين من الشبان الذين خاب حبهم قد أقدموا على الانتحار تأثراً بفرتر وتشبهاً به، حتى وجه النقاد لومهم إلى المؤلف لأنه زيّن الانتحار للشباب.

وكان أحد الذين أعجبوا بهذا الكتاب كارل أوغست أمير فيمار إحدى ولايات ألمانيا الصغيرة، فاستدعاه إلى بلاطه. وكان الشاعر قد سافر إلى سويسرا بعد أن أحب فتاة غنية تدعى ليلي شونمان في السابعة عشرة من عمرها ذات جمال باهر وعينين واسعتين بريئتين، وكاد يتزوجها على الرغم من معارضة أهلها الأثرياء وأهله الذين خافوا على عبقريته من قيود الزواج، وقد كتب عنها لصديق قوله: «إنني مقيد إلى هذه الطفلة الجميلة البريئة براءة الملائكة، وهذه البراءة تبعث الشقاء في نفسي، لأنها تأسرني وتحيلني إلى طفل وتسلبني حريتي، فليتني أستطيع الفكاك» وقد استطاع غوته الهرب من هذا الزواج بالسفر إلى سويسرا. ولما تلقى دعوة ألغراندوق كارل أوغست إلى فيمار، رحب بها وانتقل إلى الدوقية الصغيرة سنة ١٧٧٥ وهو في السادسة والعشرين من عمره حيث بقي إلى أن وافاه القدر بعد ذلك بسبعة وخمسين عاماً وهو في موضع الصدارة بين وزراء الأمير.

وكان أول ما كتبه في فيمار كتابه «**أرفان والمير**» الذي سجل فيه ذكرياته وعواطفه عن حبيبته ليلي شونمان. وبينما كان قلمه يسطر هذه الذكريات كان قلبه قد تعلق بحب شارلوت فون شتاين زوجة رئيس الفرسان. وكانت هذه المرأة أكبر منه سناً ولها أولاد وتجارب في الحياة، وكانت نموذج المرأة التي تدفع بالرجل إلى القمة، وقد كان لها أثر بارز في هذه الحقبة من حياته، نقله من الرومانسية الفوترية إلى تأملية أكثر عمقاً ونضجاً بدت تباشيرها في النسخة النثرية من «**إيفيجيني**» التي جرى تمثيلها على مسرح فمار سنة ١٧٧٩ والتي أجمع النقاد على أنها أول تراجيديا كلاسيكية في الأدب الألماني. وقد كتب غوته فيما بعد نسخة شعرية من هذه المسرحية.

إلا أنه ما لبث حتى ضاق ذرعاً بهذه الحياة التي يمضي معظمها في تنظيم

الضرائب وإعداد اللوائح، والإشراف على الصناعة والزراعة وشق الطرق وحفر الأقنية واستغلال المناجم، والاهتمام بشؤون التجنيد وبناء الاستحكامات والملاجىء، فغادر فيمارّ إلى إيطاليا التي كان يعتقد دائماً بأن زيارتها حاجة ضرورية لا بد منها لاكتمال ثقافته وشخصيته، فبدأ تجواله فيها في أيلول (سبتمبر) ١٧٨٦، ثم استقر في روما حيث قضى عامين بين آثارها وفنونها شعر خلالهما ببعث جديد، وأتيح له إنماء مواهبه في الرسم والموسيقى، وقال: «إني أفيد من كل ما أرى وأسمع، وأحس نفسي تكبر وتعظم». وقد غيرت رحلته هذه من نظراته إلى الأدب في بعض قضاياه، وغدت العودة إلى الينابيع الإغريقية همه الأول.

ومع ذلك فإن الوحي الإيطالي ظل غائباً عن مسرحية «**إيغمونت**» التي أنجزها في روما. وإذا كان هذا الوحي يظهر جلياً في مسرحية «**توركاتوتاسو**» التي كتبها في فيمار، فإنه لا يبدو إطلاقاً في «**مقطع من فاوست**» الذي كتبه سنة ١٧٩٠ وهو أول مقاطع هذا الكتاب العظيم، في حين أن «**المراثي الرومانية**» التي كتبها في هذه السنة نفسها، تحمل كلها طابع ذكرياته عن المدينة الخالدة، كما تتخلل هذه الذكريات انعكاسات علاقته بكريستيان فولبيوس وهي فتاة من عامة الشعب كانت تعمل في مصنع ولم يتح لها أن تتعلم وتتثقف وقد تعرف إليها حين قدمت له التماساً من أجل أخيها، وكانت علاقته بشارلوت فون شتاين قد فترت بعد عودته من إيطاليا فنشأت بينه وبين هذه الفتاة علاقة غرامية انتقلت على أثرها إلى منزله وعاشت معه كزوجة له على الرغم من الانتقاد الذي تعرض له بسبب هذه العلاقة المحرمة، وأنجبت له خمسة أولاد لم يعش منهم غير واحد هو أوغست، ولم يتزوجها غوتة إلا في سنة ١٨٠٦ بعد أن بلغ أوغست سن السابعة.

والواقع أن أمير فيمار ظل يلاحقه برسائله ويلح عليه في العودة إلى فيمار، حتى وافق على العودة إلى بلاطه، بعد أن تعهد الأمير بأن يعفيه من معظم مهماته. فعاد إليها في آذار (مارس) ١٧٨٨، ولكن بشخصية جديدة.

وكان قد أشرف على الأربعين من عمره فازداد نضجه وانطواؤه وتعاظم تحرره وانعتاقه، وتنوعت مواهبه ومعارفه، ووصفه شيلر يومذاك بقوله: «كانت له موهبة الاستيلاء على ألباب الناس، ولكنه كان يحرص دائماً على اعتزالهم، وهو يجعل من وجوده بهجة لدى الآخرين، من دون أن ينزل عن شيء من نفسه!».

وبدأت فيمار تتحول إثر عودته إليها، إلى مركز للأدب والثقافة والإشعاع في أوروبا كلها، بمن أحاط نفسه بهم من ذوي المواهب، وبالمسرح الصغير الذي أنشأه وأشرف عليه بنفسه وقدم له العديد من المسرحيات، وبالزيارات التي كان يقوم بها إلى هذه المدينة الصغيرة التي اكتسبت من اسم غوته شهرة كبيرة، أقطاب الفنانين والمفكرين للتعرّف عليه واكتساب صداقته، حتى غدا بلاط فيمار على الرغم من صغره من أفخم القصور الألمانية في ذلك العصر ومن أكثرها ازدهاراً.

وإلى جانب أعماله في الشعر والرسم والموسيقى، كانت له أبحاث وتجارب في علمي النبات والحيوان والجيولوجيا، ودراسات في الطبيعة والألوان والتشريح. والواقع أن غوته قد كتب في كل شيء تقريباً، ما عدا الحرب والإشادة بها والتحريض عليها، لأنه كان رجل سلم وحوار، وقد اتهم من أجل ذلك بضعف عاطفته الوطنية لأنه لم ينظم قصائد حماسية محرضة، لا سيما وأن بلاده كانت ضحية عدوان واجتياح، فقال: «ما نطقت يوماً بشيء لا أحسه ولم أجربه.. وما نظمت قصائد الحب إلا حين أحببت، فكيف أضع قصائدي في البغضاء وأنا لم أبغض قط».

ويقول المؤرخ لودن صديق غوته الذي كثيراً ما تبادل معه الرأي في هذه الشؤون: «لقد اقتنعت بخطأ أولئك الذين يرمون غوته بأنه لا يحب الوطن وأنه ينقصه الشعور الألماني والإيمان بالأزمة الألمانية، وأنه لا يشاطرها شعور الكرامة أو المهانة، وشعور السعادة والبؤس، فإن سكوته إزاء الحوادث العظيمة لم يكن سوى نوع من الاستسلام المؤلم بحكم مركزه ومعرفته بالإنسانية».

وينقل لودن قول غوته له: «لا تظن أني أشعر بالجمود نحو تلك الأفكار العظيمة، أفكار الحرية والوطن والأمة. كلا، فإن ألمانيا عزيزة على كل قلب، ولقد كنت أشعر دائماً بألم محض كلما ذكرت أن الشعب الألماني شعب وافر الشرف إذا اعتبر بأفراده، ولكنه تعس في مجموعه. وإن مقارنة الشعب الألماني بغيره يثير في نفسي شعوراً مؤلماً أحاول الفرار منه بكل الوسائل، وقد وجدت ملاذي في العلم والفن لأنهما ينتميان إلى العالم كله وأمامهما تسقط كل الحدود».

وكان كثير من الكتاب الألمان قد رحبوا بالثورة الفرنسية وتحمسوا لمبادئها، ولكنهم لما رأوا انحراف قادتها وانحراف مبادئها إلى حدود التطرف المثير، انقلبوا ضدها. أما غوته فقد سخط عليها منذ البداية لاعتقاده بأن الثورات وحركات العنف تعيق التفكير الإنساني الذي لا يزدهر إلا في ظل السلام، وكان يتساءل من ذا الذي يحمي الأقلية من بغي الكثرة متى انقلب الشعب نفسه إلى طاغية.

ومن المآسي التي عاناها غوته رعونة ولده أوغست الذي قال توماس مان في كتابه عن غوته: «إنه عبئاً ثقيلاً على نفسه وعلى أبيه. فقد كان سكيراً فاسقاً سيء الطبع، شرساً ضعيفاً خبيث الروح منذ البداية». وإذا كان الشاعر الكبير لم يوفق في أن يكون له ولد بار يسكن إليه ويرتاح إلى جانبه، فقد عوض عن ذلك بالصداقة الحميمة والمودة الصافية التي نشأت بينه وبين الشاعر شيلر الذي كان يصغره بعشر سنوات، فكان كما يقول دانالي في كتابه عنه: «كل منهما يكمل عبقرية الآخر ويذكي نبوغه».

وقد نشأت هذه الصداقة المضيئة بين الشاعرين الكبيرين على الرغم من التناقض الكبير بينهما واختلاف مزاجيهما وشخصيتيهما وعقليتيهما. ويقول لويز في ترجمته لحياة غوته: «لا يقدم لنا تاريخ الأدب شيئاً يعادل صداقة غوته وشيلر».

وكان شيلر قد زار فيمار للاجتماع بغوته بينما كان هذا غائباً عنها في زيارة

لإيطاليا، فكتب له وبقي في انتظاره واشترك مع أصدقائه في الاحتفال بذكرى ميلاده وهو غائب، فلما عاد غوته من رحلته التقيا في منزل السيدة فون سنغفيلد التي تزوج شيلر ابنتها فيما بعد.

وقال غوته في أحاديثه إلى أكرمان: «إن فكرة الشعر الكلاسيكي والشعر الرومانتيكي التي تنتشر في العالم كله وتسبب الكثير من النقاش والخلاف، قد صدرت في الأصل عني وعن شيلر. كانت القاعدة التي أسير عليها في الشعر هي قاعدة الالتزام في الموضوع وكنت أريد لها وحدها أن تتبع. أما شيلر الذي كان أثره ذاتياً خالصاً، فقد رأى أن طريقته هي الأصح، وأراد أن يحمي نفسه مني فكتب مقالة عن الشعر الساذج والشعر العاطفي. لقد أثبت لي أنني رومنطيقي على الرغم مني، وكانت مسرحيتي «**إيفيجيني**» بسبب غلبة الإحساس عليها ليست كلاسيكية ولا هي بالمعنى القديم كما يميل بعضهم إلى الاعتقاد، ثم التقط الأخوان شليغل هذه الفكرة ودفعاها إلى أبعد من ذلك، حتى انتشرت اليوم في العالم كله وأصبح الناس جميعاً يتحدثون عن النزعة الكلاسيكية والنزعة الرومنطيقية، الأمر الذي لم يكن أحد يفكر فيه قبل خمسين عاماً».

وكانت المأساة الكبرى في حياة غوته وفاة شيلر في أيار (مايو) ١٨٠٥، فحبس نفسه في غرفته وراح يبكي كالطفل، ثم كتب لأحد أصدقائه: «لقد فقدت نصف كياني. إن يومياتي خالية من أي حديث في هذه المرحلة. وما أشبه الصفحات الخالية بذلك الفراغ الذي ساد حياتي».

وبدأ غوته يشعر بالوحدة، واشتدت وحدته بعد وفاة أخته ثم زوجته ثم ولده، ولم يكن له من عزاء إلا في الكتابة وفي الحب، فبعد وفاة زوجته تزوج من أوتيلي فون بوغويش، وبعد أن تجاوز سن الستين أحب بتينا فون أرنيم الصبية الرائعة التي وزعت قلبها بين غوته وبتهوفن، ولما بلغ سن الرابعة والسبعين أصدر كتاب «**ثلاثية العاطفة**» الذي انعكس فيه حبه لأولريكه فون ليفتزوف ابنة السابعة عشر ربيعاً.

وفي هذه المرحلة من حياته التقى بنابوليون، وكان الشاعر قد أشرف على

الستين من عمره، وكانت بلاده محتلة ممزقة، في حين كان نابليون في الأربعين من عمره وقد دخل ألمانيا فاتحاً، ولم يكن من الميالين إلى أهل الأدب والفكر لاعتقاده بأنهم مزهوون متدللون لا يصلحون لأن يتخذ المرء منهم وزيراً أو زوجة، ولكنه كان يريد أن تكون زيارته لمدينة أرفرت للاجتماع بقيصر روسيا وعدد من الملوك والأمراء، مظاهرة متألقة وهاجة ينعكس أثرها في العواصم الأوروبية، وقد ألح أمير فيمار على غوته بأن يكون إلى جانبه في تلك اللحظات الحرجة من حياته، فلما علم نابوليون بوجوده في أرفرت استدعاه لزيارته واستقبله بحفاوة وتفرس فيه ملياً وقال له: «يا سيد غوته.. أنت رجل!» ثم سأله عن عمره وقال: «إنك لا تزال محتفظاً بمتانة بنيتك» وانتقل إلى سؤاله عن مؤلفاته، وانتقد بعض المواقف في كتاب **«آلام فرتر»**، كما سأله عن رأيه في فولتير والأدب الفرنسي، ولما انتهت المقابلة التفت إلى من حوله وكرر قوله: «هذا رجل!».

وقد انتهى غوته إلى الاعتقاد بأنه من الخطأ أن تقتصر معرفة الأديب على آداب بلده لأن في كل بلد شعراً جميلاً وأدباً ملهماً وجعل منه اطلاعه على مختلف الحضارات مفكراً متسامحاً يرى أن من الطبيعي أن يختلف الناس في آرائهم ومشاربهم، من دون أن يتعصب أحد لمشربه أو رأيه، وقد كتب عن الإسلام والمسلمين مصححاً بعض مفاهيم الغرب عنهم ثم قال: «وهكذا نرى أن هذا المذهب لا يفتقر إلى شيء، وأننا لا نفوقهم بشيء على الرغم من تعدد مذاهبنا، ولا يستطيع أحد أن يتقدمهم في شيء».

ومن هنا كان اهتمامه بالآداب الشرقية وفي مقدمتها الأدب العربي والأدب الفارسي، اللذين طالع ما ترجمه المستشرقون من روائعهما، كما قرأ القرآن الكريم في ترجمتين مختلفتين، وقد انعكس هذا الاهتمام في مجموعته الشعرية **«الديوان الشرقي للمؤلف الغربي»** الذي نشره سنة ١٨١٩ ونهل فيه من ينابيع الحكمة الشرقية حتى جاءت بعض القصائد وكأنها ترجمة لبعض آيات القرآن الكريم ومحاكاة لتسابيح سعدي وحافظ من ذلك قوله في قصيدة شهيرة: «لله

المشرق والمغرب، أرض الشمال والجنوب، كلها غارقة في السلام بين يديه إنه العادل الأوحد، الذي يريد الحق للجميع فلنسبح باسمه هذا من أسمائه المائة، آمين، آمين، يكاد الضلال يتقاذفني، ولكنك تعرف كيف تهديني، فأرشدني فيما أعمل وأشعر إلى الصراط المستقيم» ومنها هذه النادرة التي رواها عن تيمورلنك: «كان تيمور دميم الخلقة أعور أعرج، وفي ذات يوم والأستاذ ناصر الدين بين يديه، أمر تيمور بالحلاق فلما أتم حلق رأسه عرض له بالمرآة، فلما رأى تيمور في المرآة قبحه أجهش بالبكاء وبكى إلى جانبه الأستاذ. وظل الاثنان يبكيان نحو ساعتين، وأقبل بعض الخلان فجعلوا يواسون تيمور ويسرون عنه بالحكايات حتى نسي. وكف تيمور عن بكائه ولكن الأستاذ لم يكف بل زادت عبراته انهماراً. فقال له تيمور: «وبعد، إنني نظرت في المرآة فرأيت فرط قبحي، فحزنت وأنا صاحب الحول والطول وخزائن المال والجواري الحسان أن أكون بهذا القبح. وأنت، ماذا يجعلك تبكي وتمضي في البكاء؟» فأجاب الأستاذ: «إنك صادفت وجهك في المرآة فلم تطف رؤية وجهك صباح مساء؟!».

ومنها أيضاً هذه القصيدة وهي بعنوان: «**قارورة العطر**»: «لكي يتحبب إليك المحب بالعطر العبق ويزيد في انشراحك وبهجتك، لهلك العطار على النار العدد العديد من أكمام الورد. وليستقطر ملء قارورة صغيرة تهدى إليك قارورة مخروطة مستدقة كبسط أناملك، لا بد له من عالم منها، عالم من القوى الحية التي تتفتق عنها الورود مؤذنة بهيام البلبل بها وترجيعه شجى أغانيه في حبها. فهل ترانا نذكر هذه الآلام والعطر يفعم حسنا ويزيد في متاعنا. لكم هلكت أنفس لا عداد لها ظلماً في سبيل عظمة تيمورا!».

ومنها هذه المقطوعة بعنوان «**سلام**»: «كنت أتمشى في الحقول فإذا الهدهد يطفر في طريقي، وكانت بغيتي البحث هنا وهناك عن ودعات متحجرات ما تخلف عن البحر القديم، فاعترضني الهدهد في اختيار ناشراً تاجه متبختراً في هيأة المدل الساخر، وإنه لسخر الحي بالميت. فقلت له: «يا

هدهدا! في الحق إنك لطائر جميل. انطلق يا هدهد وبلّغ حبيبتي أني لها وملك يمينها ما حييت. وكذلك كنت يا هدهد من قبل رسول الحب بين سليمان وملكة سبأ» فقال الهدهد: «إن التي أنت موفدي لها، قد أودعتني كامل سرها، في نظرة واحدة من ناعس طرفها. وأنا أغبطك على سعادتك، فأنت محب وأنت محبوب. ودوام الحب الزاهر مقترباً بالقوى الخالدة بقية أيامك قدر لك مقدر وطالع مكتوب!». وكان غوته قد فكر في كتابة مسرحية عن الرسول العربي محمد بن عبد الله تصور نبوته ودعوته وهجرته وانتصاره، وقد بدأ بكتابتها ولكنه لم يتمها ولم يبق منها الآن سوى نشيد على لسان علي ومنه قوله: «هوذا العباب يربو ويزهر ويزداد عظمة. هوذا شعب بأكمله يحمل زعيمه إلى أوج العلى، وفي زحفه الظافر يجتاز المماليك، ويخلع اسمه على الأمصار. وتنشأ المدائن عند قدميه!».

لقد كتب غوته عشرات الدواوين والقصص والروايات والمسرحيات، وعالج العديد من الموضوعات، ففي إيفيجيني صور المثل الأعلى في الحب وأثر المرأة في تهذيب العواطف، فإن إيفيجيني اليونانية تستغل تأثيرها على الملك تواس لإلغاء العادة الظالمة السائدة في بلده بتضحية الغرباء على مذبح الآلهة. ولكن تواس المأخوذ بحب الفتاة يعرض عليها اقتسام العرش معه فترفض، ويحمله الغضب على العودة إلى تلك العادة الظالمة، وكان من المقرر أن يكون أول ضحيتين لهذه العادة يونانيان قذفت بهما العاصفة إلى شواطىء توريدا واكتشفت إيفيجيني إن أحدهما هو أخوها أوريست. فتفكر الفتاة في حيلة لإنقاذهما والهرب معهما إلى اليونان، ولكن نبلها يمنعها من الاحتيال، وتنجح في إقناع تواس بأن يدعها تذهب معهما. وهذه التراجيديا التي كتبها غوته نثراً (١٧٧٩) ثم كتبها شعراً (١٧٨٧) تتمتع بجمال المسرحيات الإغريقية وهي أحد أعمال غوته الكلاسيكية الفضلى.

وفي «**أغمونت**» وهي تراجيديا نثرية عالج مشكلة حرية الإرادة، وتجري أحداثها في بروكسيل في عهد فيليب الثاني، حيث يقاد أغمونت المدافع عن

حريات المواطنين إلى السجن، ويتخلى هؤلاء المواطنون عنه باستثناء فتاة من الشعب تدعى كلارا أحبته وظلت وفية له. ويقضي أغمونت نحبه ضحية الدسائس وضحية حبه للحرية خصوصاً. وقد وضع بتهوفن لهذه المسرحية موسيقى تعبيرية لمرافقتها.

وفي «**ويلهلم مايستر**» يركز على واجب العمل وخدمة المجتمع والعلاقة بين الطبقات التي يريدها علاقة وفاق لا علاقة صراع وتتألف هذه الرواية من جزءين صدر أولهما في سنة ١٧٩٦، وبطلها ممثل شاب يعتقد بأنه مدعو لتجديد المسرح الألماني، وهي غنية بالمواقف العاطفية، وأبرزها مغامرة ويلهلم ومينيون، وفي نهاية هذا الجزء يكتشف ويلهلم قصر الحكماء الذين يزودونه بطائفة من مبادىء السلوك يأخذ منها. وهذا الكتاب يفتح آفاقاً عريضة على مفاهيم غوته في الدين والفن والأخلاق، ويمثل نموذج الرواية التوجيهية، ويعتبر من وجهة النظر الأدبية مزيجاً من الواقعية والحماسة العاطفية. أما الجزء الثاني فقد نشره غوته سنة ١٨١١ ونشر أكرمان بعد وفاة الشاعر نسخة جديدة منه كان قد نقحها قبل وفاته، وهو يصف كيف يربي ويلهلم ابنه فيلكس. وهذا الجزء أقل قيمة من الناحية الأدبية، ولكنه يسجل تطور أفكار غوته نحو مثل اجتماعي متأثر بآراء روسو وبيستالوزي.

وقد اقتبس موضوع «**خطيبة كورانت**» من حكاية يونانية، وهي تروي قصة شاب جاء إلى كورانت للبحث عن خطيبته، فيشاهد امرأة محجبة ذات جمال باهر تدنو من سريره، ويعلم أنها شبح خطيبته، وينبئه الشبح أن الفتاة التي يبحث عنها قد نذرتها أمها لإلهة المسيحيين ولن تستطيع أن تتزوج منه، ومع ذلك فإن الشبح يدنو منه ويعانقه ويلاقي في هذا العناق حتفه.

أما «**هرمان ودوروته**» فهي قصيدة في تسعة أناشيد تروي قصة هرمان الذي ذهب لمساعدة سكان الضفة اليمنى لنهر الرين في أثناء هربهم من الغزو الفرنسي، ويلتقي بدورته بينهم، فيشغف بها وينتهي بالزواج منها على الرغم من معارضة والده. وتؤلف الثورة الفرنسية خلفية مجيدة لهذه الملحمة البرجوازية التي هي في الوقت نفسه قصيدة غنائية رائعة.

وعكف غوته في السنوات الأخيرة من حياته على كتابه الأخيرين وأولهما ترجمة ذاتية بعنوان «**شعر وحقيقة**» صدر الجزء الأول منه سنة ١٨١١ ولم يصدر الجزء الرابع غير الكامل إلا في سنة ١٨٣٣، أما الكتاب الآخر فهو الجزء الثاني من فاوست الذي لم ينجز صفحاته الأخيرة إلا قبل وفاته بأيام قليلة وكان يريد أن يعيد النظر فيه.

ولا ريب في أن كتاب «**فاوست**» هو أعظم مؤلفات غوته، وأحد روائع الأدب العالمي، ولا يمكن مقارنته إلا بكتاب «**الكوميديا الإلهية**» لدانتي، وقد ترجم كلاهما إلى معظم اللغات الحية وإن كان من المعتذر أن تعطي الترجمة النثرية ما في الأصل الشعري من روعة، فضلاً عن الأصل ذاته في كلا الكتابين صعب جداً حتى إن كثيراً من الإيطاليين والألمان لا يستطيعون قراءته إلا إذا استعانوا بتفسير يشرح لهم معانيه.

في هذا الكتاب يمزج غوته ذكرياته الشخصية بالمعطيات الأسطورية، من خلال قصة الدكتور فاوست الذي باع روحه للشيطان مدفوعاً بالظمأ إلى المعرفة والمتعة، فيغري مرغريت البريئة بحبه ثم يتخلى عنها بعد أن حملت منه، وكان هذا الحب سبباً أودى بحياة والدتها وحياة شقيقها وحياة ابنها ثم أودى بحياتها. ولكن مأساة مرغريت ليست سوى مقطع صغيرة من هذه الملحمة، وعقدتها هي رهان بين الخير والشر، على مقدرة مفيتسو فيليس (الشيطان) على الهبوط بفاوست إلى درك البهيمية، ومقدرة فاوست على الانتصار على الإغراء. وبذلك يغدو فاوست رمزاً للبشرية التي تخطىء بقدر ما تعمل، والتي ينبغي لها مع ذلك أن تعمل لتحقيق المثل الأعلى الذي يوحيه لها ضميرها، وتؤلف هذه الفكرة بصورة خاصة محور الجزء الثاني من الكتاب الذي يختلف اختلافاً تاماً عن سابقه. فبينما تبدو الحياة في الجزء الأول (١٨٠١) في واقعية العواطف والأهواء انعكاساً لتجارب شباب غوته، نراه في الجزء الثاني وقد أشرف على الثمانين من عمره، واختبر كل نواحي الحياة، ونهل من جميع الينابيع، يتحدث بروح المعلم، ويأخذ بطله إلى دنيا الإغريق، ويختار هيلين زوجة له، وينقذه

من اللعنة «لأنه لم يكف يوماً عن التطلع إلى مثل أعلى». وهذا المثل الأعلى هو مثل الإنسانية كلها، ومن خلال فاوست يحاول غوته أن يعرض أو أن يحل معضلات الإنسان: علاقته بالطبيعة، وعلاقته بالناس، وعلاقته بالله، وعلاقته بنفسه وحدود قوته، أما زواج هيلين وفاوست، فليس إلا رمزاً لما ينشده غوته من تناغم بين مطامح النفس العصرية وتوازن الأقدمين!

يقول غوته: «خير عبقرية هي تلك التي تمتص كل شيء وتستوعب من دون أن تقوم بأي عنف يمس قدرها ومصيرها، فبالتدريب، والتعلم، والتأمل، والنجاح، والإخفاق، ثم بتدبر كل هذا وتأمله ثانية، تعمل أجهزة جسم الإنسان، في نشاطها الغريزي الطلق، على توحيد المعلومات المكتسبة بالمعرفة الكاملة في النفس، وتوجد منها وحدة منسجمة متناسقة تدهش العالم!».

ولقد أدهش غوته العالم حقاً بعبقريته التي امتصت كل شيء وخبرت كل شيء، فهي من أكمل العبقريات العالمية المبدعة، التي نفذت إلى جوانب غامضة من النفس البشرية واستكشفت خفاياها، وانتهت إلى الإيمان بأن العمل الخلّاق من أجل خير المجتمع الإنساني هو الذي يسبغ على الحياة معناها النبيل، ومنه تتحدر ينابيع التقدم والحضارة والرقي.

وقد عاش الشاعر العظيم اثنين وثمانين عاماً لم ينقطع فيها عن متع الحياة والعمل. فعندما تجاوز سن السبعين وقف أمام المرآة وصرخ: «إن تحت هذه الخصل البيضاء بركاناً!». وظل البركان يتفجر حتى النهاية، وقبل موته بثلاثة أشهر استجمع آخر قواه وأنجز «فاوست» تلك الملحمة الفريدة. ثم مات في الثاني والعشرين من آذار (مارس) ١٨٣٢، كما مات فاوست في عملية الخلق، في تحول نهائي. مات وهو يحدق في العالم الذي أظلم من حلوه ويتمتم:

ـ الضوء... أريد المزيد من الضوء!



غوته والحب

كان غوته في الخامسة عشرة من عمره لما خفق قلبه الخفقة الأولى في فرنكفورت بحب فتاة يتحدث عنها في كتابه «**شعر وحقيقة**» الذي ترجم فيه حياته ويسميها مرغريت، ولعلها مرغريت (غريتش) فاوست الضحية البريئة، وكان في سن الثالثة والسبعين لما أحب أولريكه فون ليفيتزوف فأثار حبها العاصف في حياته لم تهدأ فيها أبداً. وبين هذين الحبين تعاقبت عشرات النساء، فالمرأة كانت رفيقته وشاغلته طيلة حياته. ولا يتسع المجال للحديث عن جميع اللواتي ظفرن بحب الشاعر العظيم ولكننا سنرسم ملامح ثلاثة منهن.

أولى هؤلاء النساء شارلوت بوف بطلة كتاب «**آلام فرتر**»، وقد التقى بها في فتزلار وهو في الرابعة والعشرين من عمره، بعد أن خلف في ستراسبورغ قلباً معذباً هو قلب فريدريكة بريون ابنة قسيس قرية سانسهليم التي أحبت عينيه البراقتين وذكاءه المدهش، فقدمت له مقابل القصائد التي نظمها في عينيها الزرقاوين وشفتيها الشهوانيتين، محارم طرزتها بأناملها، وغنّت الأغاني الإلزامية بصوتها العذب، وعاشت بعد رحيله وحيدة لم تعط قلبها لرجل آخر، مكتفية بالأسابيع القليلة التي قضتها قربه، تلك الأسابيع التي ملأت حياتها حباً وحناناً ودفئاً وألماً.

وفي هذه المرأة كان قلب غوته هو الذي تعذب، لأن شارلوت كانت مخطوبة من شاب يدعى كستنر، وقد باركت أمها هذه الخطوبة بضراعاتها الحنونة ودعواتها الحارة وهي تجود بآخر أنفاسها، فاستمدت علاقتها بخطيبها قداسة من هذه الذكرى الغالية على نفسها.

وكانت الفتاة قد تعرفت بغوته في إحدى الحفلات الراقصة، فسحره جمالها الآسر وفتنتها الطّاغية، وأثاره طول تحديقها به ولم يمض على تعارفهما ساعات، وخيل له أن بريق الوجد والوله ينبعث من عينيها الواسعتين، ولما احتواها في رفق بين ساعديه ليراقصها على نشوة الأنغام، رآها تطمئن إليه كحمامة وديعة عادت مع أنسام المساء لتستظل بهدوء العش في أعلى الذروة من غصنها، بعد نهار مليء بالتوجس والسعي وراء الحب والماء. ثم خرجا بعد ذلك إلى الحديقة ليروحا عن نفسيهماقليلاً من أثر الحر والزحام، فسمعها تناجي نفسها بقولها: «رحماك يا ربي لماذا لا تلتقي أرواح المحبين إلا بعد أن تكون يد القدر قد سبقت لحظة اللقاء بتدبيرها المعاكس؟!».

ولكن شارلوت أنكرت فيما بعد كل ذلك، زاعمة أن أفكاره وهواجسه وشدة حساسيته هي التي جسمت خيالاته وأوهمته أنها تبادله الحب الذي يخفق في قلبه ويعذب حياته، وأن ما نشأ بينهما بعد زياراته المتعددة لها وأحاديثهما المستفيضة عن الحياة والحب والجمال لا يعدو الصداقة النبيلة الوفية، فلماذا يشقي نفسه ويشقيها معه في غير طائل.

ويتكرر النقاش والعقاب والإلحاح يوماً بعد آخر، وهي تحيطه بعطفها ورقتها ومجاملتها، حتى بدأ الخطيب كستنر يضيق بتلك الزيارات الليلية، على الرغم من الصداقة التي نشأت بينه وبين غوته، وثقته التي لا حد لها بشارلوت، فيلومها والدها على موقف اللين الذي تتخذه منه وترحيبها الدائم به وزياراته المتكررة التي بدأت تثير الظنون وجعلت الناس يتهامسون، وتصارحه الفتاة بكل ذلك وتطلب منه الانقطاع عن زيارتها مناشدة إياه بالصداقة التي تربط ثلاثتهم، هي وهو وكستنر، أن لا يهدم عليها عيشها وينغص عليها سعادتها المقبلة.

ويخرج غوته من المعركة خاسراً كل شيء، ويكاد الموقف الأخير بينهما يتحول من موقف وداع إلى موقف غرامي جديد بدأ يعصف في قلبيهما حين يطوقها بين ذراعيه، ويمتزجان روحاً وجسداً، وتتلاقى عيونهما وتتعانق نظراتهما، ولكنها لا تكاد تحس أنفاسه الحرّى تلفح وجهها حتى تتراجع

وتسحب يدها من يده، ويبدو الهلع في عينيها، وتصرخ صرخة خافتة مخنوقة، وتناشده أن يرحم ألمها وضعفها، فيثوب رشده إليه، حين يشعر بجسمها يرتجف بيديه، ولا يملك إلا أن يبعدها عنه، ويغادرها ليرحل بعد فترة قصرة عن فتزلار إلى فرانكفورت، وبينما كان يكتب لها ولكستنر رسائله المؤثرة الحزينة، كانت تنضج في ذهنه رواية **«آلام فرتر»** التي كانت في حينها أورع قصة غرامية رومانسية عرفها العالم.

وتنقضي سنوات وسنوات تمحو حب شارلوت من قلبه وملامحها من ذاكرته، ثم تدخل عليه يوماً وهو في مكتبه في فيمار سيدة وقور يتأملها وكأنه يعرفها من دون أن يتذكر اسمها، فتقول له: «أنا شارلوت بوف!» فيدهش لذلك ويصافحها من دون أن تثير لمسة يدها أية عاطفة في نفسه، ويتساءل: «ترى هل استيقظ حبها لي بعد كل هذه السنين فجاءت لتعتذر وتكفر؟!» وإذا بها تقول بلهجة متحفظة: «لقد جئت لألتمس منك أن تشمل ولدي برعايتك ونفوذك بالدولة!» فيعدها خيراً ويسود لقاءهما فتور وملل، فتغادر مكتبه كما دخلت من دون أي تأثر، ويودعها كما استقبلها من دون أي انفعال!

ولعل غرام غوته وبتينا برنتانو أجمل قصصه الغرامية وأغربها جميعاً، وقد رواها أدباء كثيرون منهم الناقد الفرنسي الشهير سانت بوف في كتابه **«أحاديث يوم الإثنين»** الذي سنقتبس بعض ما جاء فيه. إلا أن أفضل من روى هذه القصة هي بتينا نفسها في الكتاب الذي جمعت فيه رسائلها ورسائل الشاعر وأصدرتها سنة ١٨٣٢ بعنوان **«رسائل غوته إلى طفلة»** بعد ثلاث سنوات من وفاته، وقد شك بعض النقاد في أمانة بتينا، وذهبوا إلى أنها أضافت رسائل كاملة من خيالها إلى الرسائل الحقيقية المتبادلة بينهما، وأنها وسعت وجملت بعض الوقائع التي روتها.

تروي بتينا التي كانوا يسمونها «الجنية» لفرط رشاقتها وشدة حيويتها وغرابة تصرفاتها، أنها تربت في دير فريتزلر تربية صارمة محافظة تتناقض مع طبيعتها، ولما غادرت الدير أقامت لدى جدتها سوفي دي لاروش التي كانت

تسكن في بيت جميل على ضفة الرين، ودفعها الفضول الذي اشتهرت به إلى البحث في أوراق جدتها في أثناء غيابها عن المنزل، فعثرت على ثلاث وأربعين رسالة بتوقيع غوته، ولشدة ما دهشت حين رأت أن هذه الرسائل الغرامية موجهة من الشاعر إلى أمها مسكيمليان عندما كانت في السابعة عشرة من عمرها وقبل أن تتزوج من أبيها بيار برنتانو.

كانت بتينا حينذاك في حدود العشرين من عمرها ولكنها صغيرة الجسم حتى لتبدو في سن الثانية عشرة، وكانت بضفائرها الداكنة وعينيها الحادتين وأنفها المتعالي أشبه بزهرة برية. وكان غوته يومذاك قد قارب سن الستين وبلغ ذروة المجد الأدبي، فأثار اكتشافها لرسائله وحبه لأمها خيالها المتوثب، فطالعتها مرات كثيرة ونقلت عدة نسخ منها، وعاشت في جوها العاطفي الرومانسي، حتى خيل لها أنها الوريثة الشرعية للحب الذي لم يكتمل بين أمها وعشيقها.

وملأ الحب قلب الفتاة حتى لم تعد تطيق عليه صبراً، فسافرت إلى فرنكفورت لتشرك صديقة لها تدعى كارولين دي كوندور بهذه العاطفة المتفجرة، ولكن صديقتها كانت قد لاقت حتفها في مأساة عاطفية، فمضت إلى منزل غوته الأبوي وقدمت نفسها لأمه كاتارينا، وأقامت عندها مأخوذة بجو البيت الذي نشأ فيه الشاعر، وكانت تجلس عند قدميها تصغي إلى أحاديثها عن طفولته وشبابه، ونشأت بين الفتاة المتوهجة والأم العجوز صداقة وثيقة محورها حب الاثنتين لرجل واحد، فإذا ما أقبل الليل رقدت الأم مع ذكرياتها عنه، ونامت الفتاة وهي تحتضن رسائله تناجيها وتستمد الدفء منها.

وكبر حب بتينا لغوته، وأصبح قوياً عنيفاً، فصار لا بد لها من أن تلتقي به، ولكن كيف إليه والناس يتحدثون بأنه مفرط في تعاليه وتكبره وقسوة قلبه، وأنه لا يفتح باب منزله إلا لقلة من الأصدقاء، وهو إلى ذلك متزوج من كريستين فيلبوس تلك المرأة العاملة التي نقلها إلى بيته وأنجب منها عدة أولاد قبل أن يتزوج منها زواجاً شرعياً وقد لامه على ذلك كثيرون فرد عليهم في قصيدة قال فيها:

خرجت أسير في الغابة

فرأيت في ظلال الأغصان

زهرة وضاءة في التماعة النجم

تحاكي العين جمالاً

ولما امتدت يدي لقطفها

خيل لي أنها تهمس بي

ما أراك إذ تفعل إلا جالباً إلي الذبول

فشققت من حولها الأرض

واستخلصتها بأصولها

وحملتها إلى حديقتي في منزلي الجميل

حيث غرستها في ناحية أمينة

فاشتدت وأورقت وبقيت مزهرة على الأيام

عادت بتينا إلى منزل جدتها التي كانت على اتصال ببعض الأدباء، وحصلت من الشاعر ويلاند على توصية لغوته كي يستقبل الفتاة، ثم رجلت مع أختها وصهرها في رحلة عبر ألمانيا متنكرة في ثياب شاب حوذي، مخترقة صفوف قوات الأعداء التي كانت تحتل ألمانيا آنذاك. وهكذا وصلت إلى منزل الشاعر العظيم منهوكة القوى ملتهبة المشاعر واجفة القلب.

وتقول بتينا في رسالة كتبتها إلى والدة غوته ونشرتها في مقدمة كتابها الآنف الذكر: «أمسكت برسالة التوصية وصعدت درجات منزله القريب من النهر. وكانت التماثيل القائمة هنا وهناك توحي بالهدوء والسكينة، حتى خيل لي أنني لن أجرؤ قط على أن أرفع صوتي في هذا المحراب المقدس. كان كل ما في المنزل يدل على الطمأنينة، ولكنه يفرض جواً من المهابة. وتسود الغرف بساطة مطلقة ترحب بك وتدعوك إلى الإمعان في الاستسلام لها. وسمعت الجدران المتواضعة

تهمس في أذني: «لا تجزعي، فسوف يأتي ويجتمع بك، ولن يكون فظاً متعالياً بل سيكون رفيقاً بك». وفي هذه اللحظة فتح الباب وظهر أمامي مهيباً وقوراً، ورمقني بنظرة جامدة، وأعتقد بأني مددت يدي نحوه لأصافحه ولكني ما لبثت حتى فقدت سيطرتي وأوشكت على السقوط. فأمسك بي وقال لي: «يا للطفلة المسكينة، لقد أخفتك أليس كذلك؟» ثم قادني إلى غرفته وأجلسني على مقعد أمامه، ولبثنا صامتين، وخامرني شعور بأني مسمّرة على المقعد وبأني أوشك على الاختناق، وبدأت أرتجف، فأنا لم أعتد الجلوس بهدوء لمدة طويلة، ولا استطيع التصرف مثل الفتيات المهذبات، وإذا بي أقول فجأة: «أنا لا أستطيع البقاء هكذا على هذا المقعد» ونهضت واثبة. فقال لي: «افعلي ما تشائين واجلسي كما يحلو لك». فما كان مني إلا أن قفزت إلى صدره وطوقت عنقه بذراعي، فأجلسني على ركبته وضمني إليه، وشعرت بالسكينة تسري في نفسي وجسدي شيئاً فشيئاً، ثم تلاشى كل شيء، لأني غفوت على صدره، وحين استيقظت بعد قليل كنت قد بدأت حياة جديدة».

تم هذا اللقاء في سنة 1807، وتتابعت من بعده اللقاءات والرسائل بين الاثنين، وكانت بتينا أكثر عنفاً واندفاعاً في حبها، وكان هو أكثر هدوءاً وتعقلاً، ولما التقينا بعد ذلك ببضعة أشهر في مدينة فارتبورغ، استولى عليها ذهول عقد لسانها فلم تفه بكلمة واحدة، وحينئذ تقدم غوته ووضع راحته على فمها قائلاً: «تحدثي بعينيك!» ولما رأى دموعها تنحدر على خدها، أسدل جفنيها بيديه وهو يقول: «هدئي من روعك فكلانا جدير بالبكاء!».

وكانت تريد أن تعطيه كل شيء، وأن تأخذ منه كل شيء، وهي تقول له في إحدى رسائلها: «إن الذي لا يمنح ذاته كلها لا يكون قد منح شيئاً، وهل يقدم الإنسان لامرىء هدية من دون أن ينتظر منه مثيلاً لها!». وتقول في رسالة ثانية: «حين أجد نفسي بين أحضان الطبيعة ـ التي حملتني أن أتغلغل في أعماقها ـ أشعر بأنني أمزج بينها وبينك، فإذا بي أرتمي على الحشائش النضرة، وأنهال عليها بالقبلات» وتقول في رسالة أخرى: «لقد حلمت بك من جديد في هذه الليلة. كنت جالساً مشغول البال مستغرقاً في تفكير عميق، وحين دنوت

منك طلبت مني ألا أزعجك، فآلمني ذلك أشد ألم، لأني كنت قد قطعت مسافة طويلة كي أراك، وأظلم وجهي، وامتلأت عيناي بالدموع، فاقتربت مني عندئذ ووضعت يدي على قلبك في حنان وأنت تقول: «اطمئني يا صغيرتي فأنا أعرف كل شيء» واستيقظت من نومي في تلك اللحظة. إن خاتمي الذي كنت قد ضغطت به على صدري وأنا نائمة، قد ترك به أثراً، فوضعته مرة أخرى على هذا الأثر، ثم ضغطت به على صدري من جديد، وبقوة أشد.. لأني كنت لا أستطيع أن أحتضنك!».

وكانت حيويتها وعفويتها مثار دهشته، وقد كتب لها مرة: «إنك لا تنطقين بكلمة متزنة واحدة. ولكن جنونك يتضمن دروساً في الحكمة تفوق تلك الدروس التي كانت إسبانيا تلقيها على سقراط».

وكانت بتينا قد تزوجت سنة ١٨١١ بصديق لشقيقها يدعى لودفيغ فون أرنيم وهو شاعر وقصصي ينتمي إلى أسرة بروسية عريقة، إلا أن علاقتها بغوته لم تنقطع ورسائلها إليه لم تتوقف، ثم التقت في افتتاح أحد المعارض الفنية بكريستين زوجة غوته، وكانت كل منهما تكره الأخرى، فلم تستطيعا ضبط أعصابهما ووقع شجار بينهما. فأغضب ذلك غوته، وتوقف عن الإجابة على رسائلها بينما كانت ترجوه وتتوسل إليه بمثل قولها: «لا تقل لا، لأني أحبك، بل استمر في حديثك إلي كما كنت تفعل قبلاً، وناديني كما كنت تناديني: يا طفلتي اللطيفة! واكتب لي ولو سطراً واحداً تعبر لي فيه عن مودتك» وقد يطغى عليها الوجد فتهتف: «اسمح لي أن أقبل يديك الاثنتين ولا تبعدهما عني...».

وقد حاول زوجها أرنيم أن يصلح العلاقة التي فترت بينها وبين غوته، ولكنه لم يفلح، في حين نجحت مواهبها الفنية في تحطيم جدار الجليد الذي نشأ بينهما، وذلك أن لجنة تألفت سنة ١٨٢٤ لإقامة نصب تذكاري تخليداً لغوته، فوضعت بتينا التي كانت تجيد فن النحت، تصميماً رائعاً للنصب، وأدى ذلك إلى لقائهما وتجدد العلاقة التي تربط بينهما، وتتابعت مرة أخرى رسائلها إليه وكان آخرها بتاريخ ٨ آذار (مارس) ١٨٣٢ قبل وفاته بخمسة عشر يوماً،

وقد جاء فيها: «ماذا؟ ألم تعد تعرفني؟ آه لو كنت تعلم مقدار الألم الذي تسببه لي. انس، أرجو منك أن تنسى كل ما حدث بيننا، وأن تقبل من جديد تلك الطفلة التي وضعت فيك بجرأة كل ثقتها، فهي لا تستطيع أن تغادر أرض ألمانيا إلا وهي مزودة ببركة نظرتك!».

والغريب أن هذا الحب القوي الغامر، لم يحل بين بتينا وإنجاب سبعة أولاد لزوجها أرنيم الذي لم يشك يوماً بإخلاصها له، بل إنه لم يحل بينها وإعطاء قلبها بالقوة نفسها والاندفاع نفسه، لعظيمين آخرين من عظماء ألمانيا هما هوفر بطل حركة التمرد في إقليم التيرول الذي تابعت جهاده بحماسة فائقة وبكت كثيراً حين اعتقل وأعدم، وبيتهوفن الذي بلغ من حبه لها أن يتصورها مماثلة له في فهمها للفن على حقيقته ويكتب لها في واحدة من الرسائل الكثيرة التي تبادلاها: «من لي بمن يفهم الفن على حقيقته؟.. ومن لي بمن أتحدث إليه عن هذا المقدس العظيم! أواه يا صغيرتي العزيزة: إننا نشترك معاً في رأي واحد وعقيدة واحدة، وإن وجهات نظرنا لتلتقي في جميع الأمور!».

وبينما كان غوته يشاغل بتينا ويراسلها، كان على علاقة وثيقة بماريان دي فيليمير، وكانت ماريان متزوجة، ولكنه كان يؤم منزلها كلما سافر زوجها وكثيراً ما كان يسافر، وكانت مريان معجبة به وتنظم الشعر له فحظي معها بالمرأة التي أشبعت قلبه وروحه وجسده، ومع ذلك فإنه ما لبث حتى انقطع عن زيارتها واكتفى بمراسلتها وكان يمهر قصائده ورسائله إليها بتوقيع «المخلص» أما هي فتمهرها بتوقيع «شعلة الحب». ويقال إنه بينما كان ذاهباً لزيارتها ذات مساء، تحطمت عربته، فتشاءم من ذلك ولم يعد يؤم بيتها، مكتفياً بتبادل الرسائل معها وقد نشرت رسائلهما في كتاب، وكانت آخر رسائله لها مؤرخة في العاشر من شباط (فبراير) ١٨٣٢، أي قبل وفاته بأربعين يوماً.

وخيل لأصدقاء غوته أن الشاعر حين انقطع عن زيارة ماريان دي فيليمير، قد ودع السعادة والحب والشباب، وانقطع إلى العمل والكتابة والتأليف. والواقع أن إمارات العجز والشيخوخة كانت قد بدأت تبدو عليه في تلك الأيام

التي كان يحبو فيها نحو سن السبعين، ولكن ما لبث حتى استعاد شبابه سنة ١٨٢١ يوم التقى بأولريكه ليفيتزوف.

في صيف تلك السنة كان غوته يستشفي في حمامات المياه المعدنية في مارينباد، ويقضي أيامه في الإصغاء إلى الموسيقى السماوية «التي تمزق أحشاءه ولا سيما حين تعزفها امرأة بارعة الجمال كالسيدة سيمانوسكا» أو يحوم كالفراشات حول محالس النساء، فالتقى بالسيدة ليفيتزوف وابنتها أولريكه ذات السبعة عشر ربيعاً فأعجب بشبابها ومرحها وأخذ يداعبها مداعبات بريئة فيسميها «إيك» أو يعقد خصلات شعرها حول أصابعه، أو يطلق أرانبها البيضاء من حظيرتها لتجري خلفها.

ولما عاد إلى فيمار مع فصل الخريف، ظل يفكر في هذه الفتاة اللعوب، فما كادت تطل بشائر الصيف التالي حتى رحل إلى مارينباد ولبث ينتظر مجيء أسرة ليفيتزوف، وما كادت تصل أولريكه حتى أدرك أن الفتاة قد شغفته حباً، فما إن يسمع صوتها العذب يتجاوب في مماشي الفندق وحدائقه الغناء، حتى يهجر عمله ويندفع من دون عصا وقبعة نحو الفتاة اللعوب، فيحملها بين يديه ويركض، أو يشدها إلى حظيرة أرانبها ليلعبا معاً مع تلك الحيوانات الوديعة.

ومرة أخرى جاء الخريف فيضع حداً لهذه السعادة الغامرة، فعاد غوته إلى فيمار ومرض في الشتاء وساءت حاله حتى ظن الأطباء أن لا أمل في شفائه، ولكنه ما لبث حتى استعاد عافيته عندما تلقى رسالة من الكونتيسة ستولبرغ إحدى عشيقاته السابقات، وكانت قد انقطعت عن مراسلته مدة أربعين عاماً. وكان الصيف قد دنا فأسرع إلى مارينباد، وإذا بأولريكه قد ازدادت جمالاً وفتنة، وازداد حبه لها قوة واشتعالاً، فأخذ يلاحقها ويطاردها بصورة ملفتة للنظر ومثيرة للاستغراب، حتى إن السيدة ليفيتزوف التي كانت هي نفسها إحدى عشيقات غوته السابقات خافت من فضيحة تلحق بابنتها، فغادرت مارينباد إلى كارلسباد.

ويعتزم الشاعر حينئذ أمراً خطيراً، فيلحق بالأسرة إلى كارلسباد، ولكنه لا يأتي هذه المرة إلى منزلها كعاشق متطفل بل كخاطب يريد أن يتخذ من الفتاة

التي تصغره بأكثر من خمسين سنة زوجة له، ويعهد إلى صديقه أمير فيمار الغراندوق شارل أوغست أن يكون وسيطه في طلب يدها. يقول ستيفان زفايغ الذي يروي كيف كان «هذا الرجل المتزن المحتفظ ببرودته وقسوته، والذي تحولت ملكاته الشعرية إلى نوع من المعرفة العلمية الشاملة» يحيا وسط آماله وعواطفه اللاهبة: «وابتسم الغراندوق حين طلب الشاعر منه وساطته، ابتسامة معنوية ماكرة، فالذي يطلب إليه القيام بهذا العمل الصبياني الجنوني، هو أحكم الرجال الأوروبيين وأعظمهم حنكة ودراية واتزاناً. إنه شاعر كبير طبقت شهرته الآفاق، وفيلسوف عظيم أجمع الأوروبيون على تكريمه بل تقديسه، واعتبروه صاحب الرأي الأول في حل المشاكل العالمية، وصاحب الفكر المتنور الواعي الكلي».

وهكذا تقلد الغراندوق أوسمته كلها، وذهب ليخطبها رسمياً، ثم عاد يبلغه رفض الصبية، فلم يقل كلمة واحدة. وذهب إلى منزلها في اليوم التالي وكأن شيئاً لم يكن، ممثلاً لدور الجد الحنون. وأشفقت الأم على حاله فأقامت له ليلة ميلاده الخامس والسبعين حفلة كبرى دعت إليها أصدقاءهما، ولكنه شعر في تلك الحفلة بين مرح الصبايا وزهور الشباب، ببؤسه ووحدته وعجزه، فغادر المنزل قاصداً عربته وهو يجهش بالبكاء، وشعر ساعة كانت خيل العربة تبعده عن أولريكه، أن عهد الحب قد انتهى وأنه لم يعد ينتظر من الحياة إلا الألم والذكريات.

وسرعان ما تحول الألم إلى شعر، فقد رثى غوته حبه ونفسه وحياته في قصيدة سماها **«مرثاة»** ولكن النقاد اعتادوا أن يسموها «مرثاة مارينباد» وهم يعتبرونها من أجمل قصائد الحب في العالم كله، وقد استعار فيها بيتين من كتابه **«توركاتو تاسو»** قال فيهما: «وبينما يبقى الإنسان صامتاً في عذابه، أعطاني الله المقدرة على أن أصف عذابي» و«توركاتوتاسو» هي مأساة العاطفة التي لا تستطيع أن تتكيف مع العالم ومع قوانينه.

وتعكس هذه المرثاة القلق الذي عصف بالشاعر الذي يهرب من حاضره

المؤلم بإحياء الساعات الماضية التي قضاها مع حبيبته، ذلك الفردوس الذي لم ينعم به سوى فصل قصير واحد. إنه يجد نفسه الآن مطروداً من الفردوس، وفي قلبه يتعاقب الضجر والندم والحزن وعذاب الضمير. ولكن أليست الطبيعة الجميلة العظيمة باقية في هذا العالم؟ ها إن وجهاً مضيئاً يشبهها وهي ترقص بكل رشاقتها، يرتسم في عمق السحاب الكثيف، فيتذكر حينئذ الترحيب الذي استقبلته به حبيبته، وكيف أنها بعد أن ودعته، قد جرت خلفه لتعطيه قبلة أخيرة. وعند هذه الذكرى يعود الشاعر إلى صفائه فيمجد الحب الذي يفتح روحنا على الطيبة، بتحريرنا من الأنانية وبرفعه إيانا نحو كل ما نقي وعظم. ولكن ما نفع كل هذه الحكمة؟ إنه الآن بعيد عنها، وروحه ممزقة، ولم يبق له سوى الدموع ونحيب لا ينقطع، وفي صدره تتصارع الحياة والموت بضراوة. ليتأمل رفاقه في العالم والأرض والسماء، وليمعنوا فيها النظر، أما هو فكل شيء ضائع بالنسبة إليه، وهو ضائع بالنسبة إلى نفسه:

دعوني هنا يا رفاق الطريف الأوفياء

دعوني عند هذه الصخرة العاتية، في مهوى الثلوج

العالم منفتح أمامكم

الدنيا واسعة، والأرض خصيبة

والسماء رحيبة تمتد بالجمال والجلال

فانصرفوا يا صحابي إلى الدرس والعلم،

وتابعوا كل حدث من الأحداث

واكتشفوا أسرار الطبيعة

أما أنا فدعوني هنا

لقد فقدت كل شيء، فنفسي فقدت نفسي.

وأنا الذي كنت حبيب الآلهة

غضبت الآلهة علي وأرسلت لتجربني

فتاة لم تر عيني أجمل منها وجهاً ولا أقسى قلباً

غنية بالكنوز ولكنها بالأخطار أغنى

قادتني الآلهة إلى ثغرها المعطاء

ثم انتزعتني منها وقذفت بي إلى الهاوية

وعاش غوته سنواته الأخيرة وحيداً، وأحاط نفسه بالحجارة القديمة والهياكل العظيمة، والأوراق والمخطوطات، فكتب ونظم وألّف، وداهمه الموت وهو يعيد كتابة «**فاوست**».

يقول ستفان زفايغ: «وقد مات غوته ـ كما يروي التاريخ ـ وهو يطلب إلى من حوله، بصوت مختنق، أن يفتح النافذة ليرى النور. . والحقيقة أن خيالاً، طيف امرأة رائعة الجمال، باهرة الألوان، ملائكية، كانت ترتسم في السماء كالسحابة المتحولة الساكنة، المغمورة الأطراف بالنور، وتشير إليه إلى العلاء، ببنانها الأحمر الندي».

والواقع أن غوته في غرامياته المتعددة وعلاقاته النسائية التي لا حصر لها، لم يكن يبحث عن المغامرة كدون جوان، ولا ساعياً وراء المتعة مثل كازانوفا، ولكنه كان يرى في الحب وسيلة للمعرفة، أو لولادة جديدة، ولا بد للإنسان من أمهات عديدات وليس من أم واحدة كي يتجدد ويتطور ويتغير! . . . فهؤلاء الأمهات هن المخلوقات اللاتي يلدن مخلوقات أخريات، وهن القوة التي تنتج الحياة، وهن الربيع الذي يخرج منه كل ما يحيا على الأرض.

وإذا عدنا إلى سيرة الشاعر رأينا أن كل تطور جديد فيه كان وراءه امرأة جديدة، ومن هنا نسطيع القول إن غوته المكتمل الشخصية والمتعدد المواهب والخصب العطاء، كان في حاجة إلى كل هؤلاء الأمهات، لأن أية واحدة منهن لم تكن لتستطيع وحدها أن تخرج غوته إلى العالم.

مشكلة غوته مع النساء إذن، هي مشكلة قلق المزاج الخلاق، قلق الطفل لأزلي الذي ينظر إلى كل امرأة كأم محتملة. وحتى النهاية حمل غوته هذه طبيعة الطفولية التي تتسم بشيء من النرجسية، وهذه النرجسية هي سبب لانطواء والتعالي اللذين اتصف بهما، لكنها أيضاً سبب الخصب المتدفق في اجه، فالطفل الأزلي في غوته كان معيناً لا ينضب من الإبداع.



فهرس الموضوعات

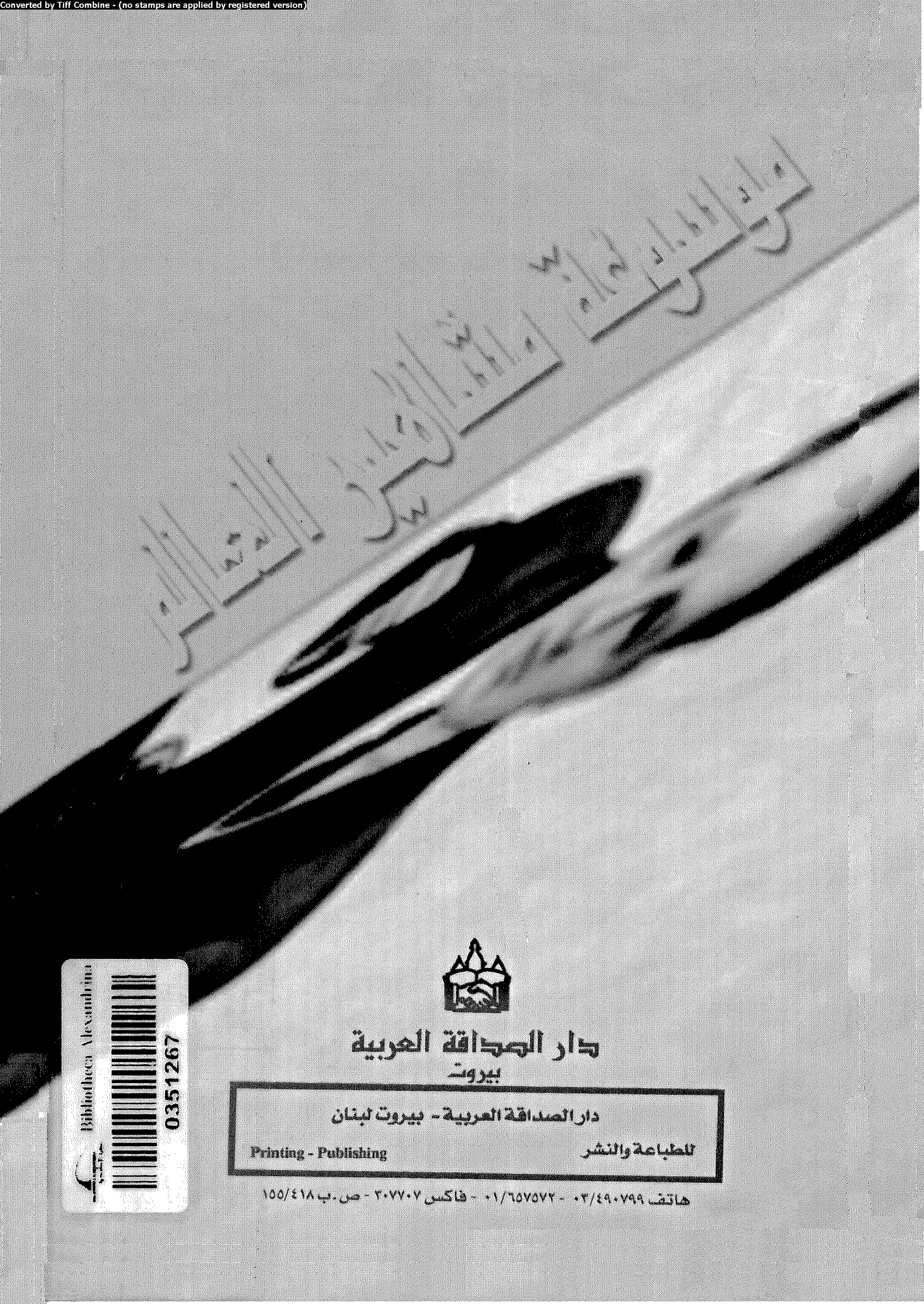
الموضوع	الصفحة











دار الصداقة العربية
بيروت

دار الصداقة العربية - بيروت لبنان
للطباعة والنشر
Printing - Publishing

هاتف ٠٣/٤٩٠٧٩٩ - ٠١/٦٥٧٥٧٢ - فاكس ٣٠٧٧٠٧ - ص.ب ١٥٥/٤١٨